P. F. L. P
Central Cultural Department
Gaza

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
الدائرة الثقافية المركزية
غزة

الحيـاة الجـديـدة – عدد رقم ٥٤

عدد خاص عن الصراع العربي الصهيوني وشعار "يهودية الدولة"

منتصف فبراير ٢٠١١

رفاقنا الأعزاء . . يصدر هذا العدد، في لحظة فارقة من تاريخ شعوبنا العربية الحديث، حيث تتوهج ثورة شباب وفقراء العرب في تونس ومصر معلنة وصول تراكمات الاستبداد والقمع وكبت الحريات والإفقار والبطالة والتخلف والتبعية للتحالف الامبريالي الصهيوني، لحظة القطع الديمقراطي الثوري ، لتعلن بداية متغيرات نوعية جديدة (في كل بلدان الوطن العربي) تؤشر بالفعل على أن الشعوب العربية تعيش مرحلة جديدة في حياتها الراهنة ومستقبلها، حيث تتفتح أزهار وورود الثورة الديمقراطية والحرية والتحرر والنهوض، وتنتشر رياح التغيير التي ستقتلع أدوات ومظاهر الاستبداد والفساد والخضوع والارتهان للعدو الأمريكي الصهيوني. . . انه عصر جديد بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . . . عصر سيتاح فيه لشباب هذه الأمة وفقراءها . . . عمالها وفلاحيها وكل الكادحين والمضطهدين من أبناءها . . . أن يستعيدوا حرياتهم وحقوقهم ليواصلوا النضال الديمقراطي على طريق التحرر من كل أعداء هذه الأمة ، وترسيخ أسس الديمقراطية والعدالة الاجتماعية بآفاقها الاشتراكية .

إن جماهير شعبنا الفلسطيني في الوطن والمنافي التي طالما انتظرت هذه اللحظة الثورية العربية، فإنها تهتف اليوم بصوت واحد، في غزة، في الضفة، في الأرض المحتلة ١٩٤٨، في مخيمات الشتات والمنافي :

الشعب يريد إنهاء الانقسام

كطريق وحيد لاستعادة وحدته الوطنية وبناء النظام السياسي الوطني الديمقراطي المقاوم الذي تتجسد فيه وحدة النضال الوطني والقومي، لتحقيق أهدافه في التحرر الوطني والديمقراطي .

المجد للشهداء . . المجد للثورة . . عاشت فلسطين حرة عربية

الدائرة الثقافية المركزية

قالوا عن اليهود واليهودية

"كانت حياة العبرانيين في فلسطين تشبه حالة رجل يصر على الإقامة وسط طريق مزدحم فتدوسه الحافلات والشاحنات باستمرار، ومن البدء حتى النهاية لم تكن ممتلكاتهم سوى حادث طارئ في تاريخ مصر وسوريا وآشور وفينيقيا ذلك التاريخ الذي هو أكبر وأعظم من تاريخهم".

المؤرخ البريطاني ج.هـ ويلز "موجز التاريخ"

"المال هو إله إسرائيل المطاع، إن المال يُخَفّض جميع آلهة البشر ويجعلهم سلعاً. فالمتاجرة بالمال هو الإله الحقيقي لليهود". إن الأساس الدنيوي لليهودية، هو الرغبة العملية، والمنفعة الشخصية. والحق أن العصر الحديث بتحرره من المتاجرة والمال، وبالتالي من اليهودية الواقعية والعملية، سوف يحرر نفسه بنفسه.» أن دين اليهود هو التجارة، وأن إله اليهود هو المال. وإذا كنا نتطلع إلى تحرير الإنسانية، "فيجب إذاً تحريرها من التجارة والمال، أي تحريرها من اليهودية وتحرير اليهودي من يهوديته".

كارل ماركس

"على الرغم من أن مصطلح " شعب" فضفاض، وغير واضح جداً ، إلا أني لا أعتقد بأنه كان في أي زمن مضى شعب يهودي واحد . إن الرواية التاريخية القائلة إن "الشعب اليهودي" قائم منذ نزول التوراة في سيناء، وإن الإسرائيليات والإسرائيليين من ذوي الأصل اليهودي هم ذراري ذلك الشعب، الذي "خرج" من مصر واحتل "أرض إسرائيل" واستوطن فيها لكونها "الأرض الموعودة" من طرف الرب، وأقام من ثم "مملكتي داوود وسليمان" ، وإن هذا الشعب تشرد نحو ألفي عام في الدياسبورا بعد دمار الهيكل الثاني. هي رواية غير موثوق فيها على الإطلاق ، بل إنها انتفت تماماً ولم يكن لها أي أنصار أو أي مريدين حتى نهاية القرن التاسع عشر".

"شرعت بالتفتيش عن كتب تبحث في طرد اليهود من البلاد، وعن سبب أو عن حدث مؤسس في التاريخ اليهودي، كالمحرقة النازية تقريباً ، لكنني فوجئت حين تبين لي أنه لا وجود لكتب أو أدبيات توثق مثل هذا الحدث. والسبب بسيط وهو أنه لم يقم أحد على الإطلاق بطرد شعب البلاد، فالرومانيون لم يطردوا شعوباً (عقب احتلالاتهم)، وما كان في إمكانهم القيام بذلك حتى لو رغبوا فيه، إذ لم تتوفر لديهم قطارات أو شاحنات من أجل ترحيل أو نفي شعوب أو مجموعات سكانية بأكملها".

المفكر اليهودي: "**شلومو ساند**"

في مقدمة كتابه "اختراع الشعب اليهودي"الطبعة العربية - ٢٠١٠

بدلاً من المقدمة

. . . **في تقويم التاريخ العربي** ، تغدو رياضيات الحساب الرقمي للمسح الإحصائي في تحليل جينات وتجمعات الشعوب زمن الانكسار والهزيمة دون قيمة ، وهو ما يمكن ملاحظته من خلال "فقه السكان المقارن" الذي يشير إلى ارتفاع عدد سكان "الوطن العربي" نهاية عام ٢٠١٠ إلى حوالي **(٤٠٠) مليون عربي** ، وبلوغ تعداد سكان "إسرائيل" إلى حوالي **ستة ملايين** نسمة يستوطنون أرض فلسطين التاريخية . . !

هنا قد لا يكون الحديث عن <دولة اليهود> من قبيل حديث الأساطير فحسب، خاصة إذا ما أخذنا بالاعتبار دور النظام الرأسمالي العالمي في دعم الحركة الصهيونية وتخليق "دولة إسرائيل" ، دون أن تتجاوز ما قامت وتقوم به الحركة الصهيونية في بلورة ما يسمى بـ "الذاكرة الجماعية الصهيونية" ودورها في عمليات تغيير ، وتحوير وقائع التاريخ لصالح اختراع <شعب> وصناعة <دولة> . . !

بعد أكثر من مائة عام على انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، وتحديدا في حزيران ٢٠٠٩ خطب رئيس وزراء <إسرائيل> بنيامين نتنياهو أمام مركز بيغن للدراسات ، ليحاكي مشروع هرتزل الخيالي ، <دولة إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي ، وهي ستظل هكذا . .> . يقول نتنياهو . . ! .

السؤال الفلسطيني الكبير هنا ، هل ما زال في الأفق متسع من خيال لنحلم بالدولة الفلسطينية الديمقراطية على كامل التراب الوطني . . ؟ . وهل ما زال متسع من خيال لنحلم بالعودة . . ؟ . أم أننا سنصبح يهود التاريخ ونعوي في الصحراء بلا مأوى . . ؟ .

في هذا العدد من الحياة الجديدة ، وهو بالمناسبة الرابع بعد الخمسين ، ندرك أن حديثنا عن <يهودية الدولة> يعني حديثاً عن جولات الفشل والخذلان العربي منذ العام ١٩٤٨ ، كما يعني حديثاً عن تواطؤ النظام الرسمي العربي، ووهن <الأمّة> حتى إشعار آخر ، وفشل التجربة الفلسطينية عبر أدواتها السياسية ، في إنشاء الكيانية الوطنية المستقلة رغم التضحيات والآلام العظيمة التي قدمها شعبنا .

وقد آثرنا في هذا العدد الخاص **أن نجدد الحلم ، لا أن نبدده ، ونضع بين أيديكم < شعار يهودية الدولة بين غطرسة القوة والأسطورة التوراتية>** و **<إسرائيل متحف الأجناس>** و**< تفسير ماركسي للمسألة اليهودية>** و**<دوافع إسرائيل إلى الاعتراف بها دولة يهودية >** ونعرج على **<إشكالات الهوية المضطربة في إسرائيل>** ونتقصى **<جذور العرقية الصهيونية . . والرأسمالية العالمية>** و**<اليهود واليهودية والصهيونية>** و **<العنصرية والصهيونية>** و **<الصهيونية: كولونيالية أم دين؟>** ونتساءل : **هل سيكون الحل البديل الوحيد < قيام دولة فلسطين إلى جانب دولة إسرائيل اليهودية. . ؟>**، وهل بات شعار **<الدولة اليهودية>** قابلاً للحياة . . ؟ ، وحديث <الدولة الفلسطينية> قابل للوفاة . . ؟ . هذا كله ، إلى جانب موضوعات أخرى ، قابلة للقراءة ، وللنقاش . . صوب مزيد من الوعي الثوري . . تعزيزاً لنضال حزبنا على طريق التحرر الوطني والديمقراطي .

عاشت فلسطين حرة عربية

الدائرة الثقافية المركزية

منتصف فبراير ٢٠١١

شعار "يهودية الدولة"

بين غطرسة القوة والأسطورة التوراتية

على أثر انهيار الاتحاد السوفياتي ومنظومة البلدان الاشتراكية ، تخلصت القوى الإمبريالية بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية ، من كافة القيود والمعوقات التي حالت دون التوسع والسيطرة الرأسمالية على مقدرات وثروات شعوب العالم، وإخضاعها لمقتضيات التوسع الإمبريالي في إطار نظام العولمة منذ تسعينيات القرن الماضي، الذي حمل في طياته أشكالاً جديدة من السيطرة العنصرية التي تدعي أن التمايز بين البشر يقوم على أساس التمايز بين الثقافات والحضارات ، الأمر الذي أسهم في انتشار ظاهرة ما يسمى بـ "الانبعاث الديني" على المستوى العالمي، وهي ظاهرة لم يكن ممكناً انتشارها، بدون ترتيبات وبرامج وتوجيهات محددة تخدم مصالح الإمبريالية في طورها الرأسمالي المعولم "الجديد" .

ولذلك فإن طرح حكومة دولة العدو الإسرائيلي شعار يهودية الدولة، لا يبتعد أبداً عن ظاهرة "الانبعاث الديني" على المستوى العالمي ، علاوة على أنه يشكل جوهر البعد الديني الأسطوري الذي تتذرع به الحركة الصهيونية، أو تستخدمه عندما تقتضي الحاجة إليه في ظروف محددة، فالمعروف أن الحركة الصهيونية في بداياتها الأولى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لم تتمسك ابداً بالمنطلق الديني التوراتي لإقامة " دولتها" بل وافقت في مؤتمرها السادس (١٩٠٣) على إقامة دولة إسرائيلية في اوغندا أو الأرجنتين، كدليل ساطع على تجاوز الادعاءات الدينية فيما يسمى بـ"أرض الميعاد" ، ما يؤكد على أن العامل الديني ، التوراتي، لم يكن منطلقاً وحيداً لسياسات الحركة الصهيونية وقادتها الذين أدركوا منذ البدء أن الظاهرة الدينية ليست معياراً لقوة الدولة الحديثة ، التي لا يمكن تحقيقها إلا بالاعتماد على الأسس العلمانية في المؤسسات المدنية السياسية والمجتمعية والاقتصادية والعسكرية والثقافية ، وهذا ما قامت بتنفيذه الحركة الصهيونية منذ بداية القرن العشرين .

وللتذكير فقط نشير إلى المؤتمر التأسيسي الأول للحركة الصهيونية (١٨٩٧) الذي خطط ووضع البرامج والأفكار الكفيلة ببناء الدولة العلمانية (أسسوا الكيبوتزات ثم الصندوق القومي والنقابات العمالية والجامعة العبرية ومعهد التكنولوجيا ومصانع الاسمنت والحديد والسلاح الخفيف واجهزة الأمن والأجهزة العسكرية... إلخ) ، وفي هذا الجانب يمكن العودة إلى كتابات أبرز المفكرين والقادة الصهاينة اللذين أكدوا على أهمية فصل الدين عن الدولة مثل "موشي هس" و "ليو بنسكر" و "تيودور هرتزل" و "وايزمن" و"بن جوريون" .. . إلخ ، ما يعني دوراً رئيسياً للعلمانيين الصهاينة في تأسيس الدولة ، وبالتالي فإن استخدام والأساطير الدينية والتوراتية، كان ولا يزال، لحساب الأهداف السياسية ، التي تخدم الكذبة الكبرى التي تقول بأن اليهود أمة ، وذلك على قاعدة أن الصهيونية هي الجانب

القومي في اليهودية ، واليهودية هي الجانب الديني في الصهيونية ، وبالتالي فإن "إسرائيل" تحقيق سياسي وتجسيد عملي وسياسي للظاهرتين معاً ، الأمر الذي يعني ان الصهيونية هي الوجه السياسي والفكري لليهودية، أما اليهودية فهي المرتكز الديني للصهيونية حسب ما أورده "هرتزل" في كتابه – دولة اليهود– على الرغم من عدم اقتناعه أصلاً بالدين ، فالديانة اليهودية أو التوراة عند "هرتزل" ضرورية فقط لفقراء اليهود لكي تنجح الحركة الصهيونية في استثارتهم عاطفيا بما يسميه "أرض الميعاد" وتشجيعهم للعودة إليها ، بما يضمن –كما يؤكد هرتزل– قيام العمال والفلاحين الفقراء اليهود بتنفيذ المخطط الصهيوني في بناء المستوطنات وإقامة المزارع والعمل في المصانع وغير ذلك من المؤسسات الصهيونية ، فالدين هنا، أو التوراة والتلمود ، ضروري جداً كمدخل لدى فقراء اليهود ، وبدونه – كما يستطرد هرتزل في كتابه – يصبح من المستحيل على الحركة الصهيونية أن تقنع آلاف الفقراء اليهود من العودة إلى "أرض الميعاد" بعد ما يقرب من ألفي عام على طرد الرومان لليهود، لم يتحرك أحد من الدول الغربية – ومن اليهود – بصورة جدية للعودة إلى ما يسمونه بـ"أرض الميعاد" حتى ظهور الرأسمالية وانتشارها وتوسع مصالحها، ومن ثم نبشها للماضي الأسطوري واستخدامه ذريعة لزرع الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي ، تأميناً لتلك المصالح ولضمان استمرار تجزئته واحتجاز تطوره ووحدته في آن واحد .

فيما تقدم ، يتضح أن مؤسس الحركة الصهيونية "تيودور هرتزل" كان مدركاً بقوة طبيعة العلاقة العضوية بين الحركة الصهيونية من ناحية ومصالح النظام الاستعماري الرأسمالي من ناحية ثانية، ما يؤكد على أن "إسرائيل" انطلاقاً من دورها ووظيفتها ، لم تنشأ إلا لخدمة مقتضيات التوسع الرأسمالي، وكان وعد بلفور أحد أهم ثمار تلك المقتضيات لخدمة المصالح الاستعمارية البريطانية، وبعد أفول السيطرة الاستعمارية والدور البريطاني لحساب السيطرة الأمريكية في الشرق الأوسط منذ عام ١٩٥٧ انتقلت "إسرائيل" إلى التعاطي مع الإمبريالية الأمريكية لتصبح أداة طيعة في تنفيذ مخططاتها وحماية مصالحها في الوطن العربي ، ومع هزيمة حزيران ١٩٦٧ ، تحولت دولة العدو الإسرائيلي تدريجياً إلى شريك حقيقي للإمبريالية الأمريكية ، خاصة في ظروف العولمة الراهنة وخضوع الشرائح الحاكمة في معظم النظام العربي الرسمي لمقتضيات وشروط التحالف الصهيوني الإمبريالي عبر اتفاقات "كامب ديفيد" و "وأوسلو" و "وادي عربة" وبداية مسلسل التطبيع مع "إسرائيل".

ولعلنا لا نبالغ في القول أن استشراء الظاهرة الدينية العنصرية في "إسرائيل" ليست بعيدة أبداً عن كونها ظاهرة في خدمة مقتضيات العولمة الإمبريالية الراهنة ، والهادفة إلى اشعال النزعات الدينية العنصرية ، الطائفية في كل البلدان العربية التي باتت في حالة غير مسبوقة من الخضوع والتبعية والتخلف ، لإثارة المزيد من النزعات الطائفية والمذهبية والاثنية فيها تكريساً لتجزئتها وتفكيكها كما هو الحال في العراق والسودان واليمن ومصر ،إذ أن هذا الضعف العربي كان وسيظل احد اهم الأسباب التي عززت قوة دولة العدو الصهيوني وغطرستها وعدوانيتها وعنصريتها البشعة المتمثلة في

رفع شعار "يهودية الدولة" كشرط اول لما يسمى بعملية التفاوض الجارية مع قيادة م.ت.ف صوب المزيد من الخطوات الاستسلامية باسم السلام المزعوم .

وفي هذا السياق نشير إلى أن الحركة الصهيونية التي استندت في بداية نشاتها إلى الأسس العلمانية في بناء مؤسساتها ، إلا أن صعودها في بداية القرن الماضي، أعاد المرتكز الديني التوراتي ليحتل في التفكير الصهيوني مكانة موازية في اهميتها للأسس العلمانية ، إلا أننا نلاحظ أيضاً أنه مع انتقال اليهود من العيش في «المنفى» إلى الاستيطان في فلسطين، ثم إعلان "الدولة" أيار ١٩٤٨، بدأت مكانة التوراة بالانحسار لتحل محلها ما يسمى بـ"المحرقة" النازية في إعادة تشكيل الهوية اليهودية من غير أن ينتهي تأثير التوراة بالطبع، والتي وجدت في المتطرفين المتدينين (الحريديم) ما يعيد إليها تأثيرها الملموس في خدمة الجوهر السياسي للحركة الصهيونية ودولتها، الأمر الذي أعاد الجدل بقوة إلى إشكالية الهوية المعاصرة لـ"إسرائيل" وسكانها من المواطنين العرب والمستوطنين الصهاينة؛ مع امكانية تفاقم الصراع بينهما ، وهي اشكالية معقدة ليس من السهل إيجاد حلاً ديمقراطياً لها طالما بقيت موازين القوى مختلة بين طرفي الصراع العربي الصهيوني لحساب دولة العدو الصهيوني ، وهي إشكالية لن تجد حلاً لها إلا بهزيمة الحركة الصهيونية وتحقيق الهدف الإستراتيجي في إقامة فلسطين الديمقراطية.

من هنا تكمن أهمية القراءة التاريخية، الموضوعية المتأنية لهذا الشعار ومخاطره المحتملة على مستقبل شعبنا وقضيتنا وحقوقنا التاريخية .

فمنذ أن أعلن " بن جوريون" وثيقة قيام "إسرائيل" تكررت كلمة «الدولة اليهودية» في تلك الوثيقة ليلة ١٩٤٨/٥/١٤ خمس مرات؛ ومنذ ذلك التاريخ اختفى إلى حد كبير مصطلح «الدولة اليهودية» أو مصطلح «دولة اليهود» وحلت محلهما عبارة «دولة إسرائيل».

الخطير في الأمر ، خاصة بعد توقيع مصر لمعاهدة "كامب ديفيد" وما تلاها من اعتراف بدولة "إسرائيل" والتطبيع معها ، وبعد اعتراف قيادة م.ت.ف بـ"إسرائيل" وتوقيع اتفاق "أوسلو" ، وكذلك اعتراف النظام الاردني بها، وتوقيعه على اتفاق "وادي عربة" ، وما تلا هذه الاتفاقات من اعتراف وتطبيع سياسي واقتصادي من عدد من الدول العربية في الخليج العربي والمغرب ، حيث أدى كل ذلك إلى تكريس استجابة النظام العربي للشروط الامريكية الصهيونية ، إلى جانب تراجع الحركة الوطنية الفلسطينية وانقسامها ، ففي مثل هذه الاوضاع المهزومة والمأزومة ، لم يعد مصطلح الدولة اليهودية مجرد تعريف ذاتي للإسرائيليين بحسب القانون الأساس الذي أصدره "الكنيست" في ١٩٩٢ فحسب، بل صار –كما يقول صقر أبو فخر[١]– مسألة دولية بعد خطاب "جورج بوش" في مؤتمر العقبة

[١] صقر أبو فخر - فلسطين - العدد ٦ - الجمعة ١٥ /١٠/٢٠١٠ - السنة الأولى.

(٢٠٠٣/٣/٤) الذي شدد فيه على ضرورة الاعتراف بـ"يهودية الدولة"، ليصبح ذلك المطلب أو الشعار –لدى حكومة نتنياهو– شرطاً لا تستقيم أي تسوية من دونه.

ان تاريخية هذا الشعار ، تعود إلى نشاة الحركة الصهيونية كحركة سياسية أرادت تحويل اليهود إلى "أمة" لها دولة، استجابة للأهداف الإمبريالية التوسعية في المشرق العربي، على الرغم من حقائق التطور التاريخي وعلم الاجتماع الحديث والمعاصر، التي تؤكد رفضها منطق اعتبار الدين عاملاً أساسياً في تكوين الأمم ، فاليهودية ديانة تبشيرية يمكن أن يعتنقها العربي ، والانجليزي والفرنسي والألماني والأمريكي والصيني والياباني والأفريقي والهندي... إلخ، دون أن يعني ذلك أن هؤلاء الذين اعتنقوا اليهودية يمكن أن يشكلوا أمة واحدة، لكن استمرار ضعف وتراجع حركة التحرر الفلسطينية والعربية ، والهزائم التي لحقت بها ، أفسح المجال واسعاً أمام مقتضيات التوسع الرأسمالي ، لكي يتجاوز هذه الحقائق ، ويتذرع بالأسطورة التوراتية الغيبية التي تتحدث عن ما يسمى بـ"أرض الميعاد"، أو أي مسمى أسطوري أو ديني أخر لو لم تكن "التوراة"، وكما قال " بالمرستون" رئيس وزراء بريطانيا في تلك المرحلة، "لو لم تكن الحركة الصهيونية لخلقنا حركة صهيونية في خدمة مصالح بريطانيا" . وبانحسار الدور الاستعماري البريطاني، وبروز الدور الإمبريالي الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية ، تعاملت الولايات المتحدة مع الحركة الصهيونية ودولتها ضمن رؤية موحدة وتبادلية حريصة على تكريس المصالح الإمبريالية من ناحية واستخدام كافة الوسائل والأساليب العدوانية الكفيلة بعرقلة تطلعات الشعوب العربية نحو التطور والنهوض والوحدة .

وفي هذا السياق ، لابد من التأكيد على أن أحوال الضعف والتخلف السائدة في بلدان الوطن العربي، بسبب هيمنة القوى الرجعية شبه الاقطاعية والبرجوازية على قيادة الحركة الوطنية منذ أوائل القرن العشرين حتى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، ساعدت في خلق الظروف الملائمة لنجاح الاستعمار في دعم وتطوير الحركة الصهيونية وإقامة مستوطناتها ومؤسساتها السياسية والعسكرية والاقتصادية تمهيداً لاغتصاب فلسطين وإعلان "دولة إسرائيل" في ١٥ أيار ١٩٤٨ .

لقد حرصت الحركة الصهيونية ، منذ نشأتها على التماهي مع المصالح الرأسمالية العالمية ، ولذلك عملت على أن يكون وعي اليهودي لذاته لا يحدده إيمانه بل نبذ الآخرين له وكراهيتهم إياه. وهذا هو بالضبط ما سُمي «المسألة اليهودية» المعاصرة التي أفلحت الحركة الصهيونية في تأسيس دولة لطائفة متناثرة في شتى أنحاء العالم، (من يهود أوكرانيا وبولونيا وروسيا وفرنسا وإنجلترا وهولندا وأمريكا ويهود الدول العربية وأفريقيا!!) وأنشأت بوتقة صهر لهؤلاء جميعاً من خلال اللغة والجيش والرموز الدينية –كما أشرنا– المشتركة والحياة اليومية الواحدة فوق أرض واحدة هي فلسطين المحتلة، مع أن الرموز الدينية لم تكن، في نظر مؤسسي الحركة الصهيونية، ذات قداسة على الإطلاق، فهي، لديهم، تعكس زوراً ما يسمى بـ"الانبعاث القومي" لا التاريخ الديني، فالمؤسسين الأوائل للحركة الصهيونية (موسى هس وبنكر وهرتزل ووايزمن وبن جوريون ....وغيرهم) تعاملوا

مع كتب الديانة اليهودية كالتوراة والتلمود، مجرد فلكلور قومي يهودي، وكان هيرتـــزل يـــردد: «إن الدين لا يهمني، بل إن ما يهمني هو الأسطورة الجبارة للعودة»، وقد اعترف بأنه فكر مليـــاً بتحويـــل اليهود بشكل جماعي إلى الكاثوليكية كحلّ لأوضاعهم في مجتمع مسيحي ينبذهم"[١]، ما يؤكد على كذب أسطورة أرض الميعاد وهيكل سليمان...إلخ، **وهذا الحل الاندماجي كان كارل ماركس عرضه، لكن بشكل أرقى بكثير، في كتابه «المسألة اليهودية» الذي رأى فيه ان دين اليهود هو التجـــارة، وأن إله اليهود هو المال. وإذا كنا نتطلع إلى تحرير الإنسانية –كما يقول ماركس– "فيجب إذاً تحريرها من التجارة والمال، أي تحريرها من اليهودية وتحرير اليهودي من يهوديته".**

أما عن تعريف إسرائيل بأنها «دولة يهودية وديموقراطية» فإنه يعني، بحسب القراءة الإسرائيلية، "دولة قومية لليهود لكن بنظام ديموقراطي". أما دولة ديموقراطية فحسب فتعني لا يهوداً ولا عرباً، بل مواطنين، أناس، بشر، لهم حقوق متساوية، وهذا ما ترفضه ذهنية المجتمع الإسرائيلي عموماً وقـــوى اليمين المتطرف خصوصاً بشقيه العلماني والديني.

لهذا نلاحظ توحد اليمين الصهيوني المتطرف (شبه العلماني أو العلماني) إلـــى جانـــب الـــسلفيين المتطرفين (الحريديم) ليطالبوا بدولة يهودية لا بدولة ديموقراطية، انعكاساً لعقلية القـــوه والغطرســـة الصهيونية، بدعم صريح من الولايات المتحدة الأمريكية، الأمر الذي سيؤدي إلى أشكال جديـــدة مـــن الصراع مع الشعب الفلسطيني وقواه الوطنية عموماً، ومع أبناء شعبنا فـــي الأرض المحتلـــة ١٩٤٨ خصوصاً، وذلك ارتباطاً بوعيهم لمخاطر الاعتراف بـــ"يهودية إسرائيل" التي تفوق بـــسلبيتها مـــا لا يمكن قياسه من الآثار السياسية المباشرة. وعلى سبيل المثال[٢]:

١. يجعل قيام دولة "إسرائيل" أمراً مشروعاً وأخلاقياً؛ وهذا شأن خطير جداً لأنـــه يعنـــي ان الفلسطينيين والعرب لا يعترفون بإسرائيل كأمر واقع، بل يعترفون بشرعيتها التاريخية، ما يجعل المقاومة الفلسطينية منذ ما قبل قيام "إسرائيل" عام ١٩٤٨ وبعد قيامها، أمراً غيـــر مشروع وغير أخلاقي، بل ويمكن أن توصف بأنها عمل ارهابي من وجهة نظر التحالف الإمبريالي الصهيوني وتوابعه في بلادنا !!
٢. يفرض هذا الاعتراف على فلسطينيي ١٩٤٨ قسم الولاء عنوة للدولة اليهودية.
٣. يفرض على أي نائب عربي منتخب، الولاء لا للدولة وقوانينها باعتباره مواطناً، بل الولاء للرموز الدينية أو القومية للدولة اليهودية كالعلم والشعار والنشيد..

مع وصول حكومة بنيامين نتنياهو للسلطة في عام ٢٠٠٩، تسعى إسرائيل إلى تكريس نفسها فعليا كدولة "يهودية"، في تعبير واضح عن روح الجوهر الإمبريالي الصهيوني العنصري المسيطر علـــى

[١] صقر أو فخر – المصدر السابق .
[٢] المصدر السابق .

"المجتمع" الإسرائيلي ؛ فتحت هذا المصطلح الأوسع يقبع ما بقي من أهداف إسرائيلية متعددة تعد الوجه المماثل لـــ "يهودية" الدولة .

ومن أبرز هذه الأهداف: استكمال تزييف التاريخ الفلسطيني، وتديين الصراع من جديد بحيث يتم الاحتماء بشعار "مكافحة العنف والإرهاب" للقضاء على ما بقي من مقاومة فلسطينية، وأيضا للتخلص –ولو التدريجي– من عبء الوجود الفلسطيني داخل ما يسمى بـــ"الخط الأخضر"، والتمسك بالقدس "موحدة للأبد" تحت سيادة "إسرائيل"، وضم أكبر كتلة ممكنة من أراضي الضفة الغربية ، بحيث يكون للفلسطينيين فقط ما يشبه الحكم الذاتي في هذه الأرض، فيما تكون السيطرة والسيادة الفعلية لـــ"إسرائيل" ما بين نهر الأردن والبحر، وبحيث يتم كذلك الفصل والانعزال عن الفلسطينيين تجنبا لخوض الصراع الديموجرافي المستقبلي، إن داخل "إسرائيل"، أو على أرض فلسطين التاريخية كلها.

على أي حال، ودون أية مبالغة ، فإن "هوية دولة إسرائيل" المرتبطة بمفهوم "الشعب" أو "الامة اليهودية" ستظل هوية مزيفة ، مضطربة غير قادرة على اثبات وجودها بصورة علمية او موضوعية او تاريخية كجزء من نسيج المنطقة العربية، وبالتالي لا يمكن تكريس هذه الهوية إلا بدواعي القوة الاكراهية الغاشمة المستندة إلى دعم القوى الإمبريالية ، فإسرائيل ستظل "كياناً غريباً مرفوضاً في المنطقة العربية من ناحية وستظل الحركة الصهيونية عاجزة عن الحديث عن "أمة" يهودية بالمعنى الموضوعي او العلمي، كما هو الحال بالنسبة للحديث عن "امة إسلامية أو مسيحية أو بوذية" من ناحية ثانية، ما يعني أن هذه "الدولة" لا تعدو كونها مجتمع عسكري يضم أجناساً متباينة روسية وبولندية وأوكرانية وأوروبية وآسيوية وعربية وأفريقية ، كل منها له ثقافته وتراثه المختلف عن الآخر ، وجدوا في الفرصة التي أتاحتها الرأسمالية العالمية لهم بالذهاب إلى فلسطين واستيطانها بذريعة "العودة إلى أرض الميعاد" مخرجاً لهم من أزماتهم أو مدخلاً لتحقيق مصالحهم ، إذ انه بدون تشجيع ودعم رأس المال الأوروبي عموماً والبريطاني خصوصاً لما كان من الممكن أن تتقدم الحركة الصهيونية خطوة واحدة إلى الأمام ، ما يؤكد على أن التقدم الاقتصادي والعسكري الذي أحرزته دولة العدو الإسرائيلي لم يكن ممكناً دون الدعم المتواصل حتى اللحظة من القوى الإمبريالية والبرجوازية في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ، ما يعني أن استنهاض قوى حركة التحرر العربية وخروجها من ازماتها صوب استعادة دورها في النضال السياسي والكفاحي والديمقراطي من أجل توفير كل أسس الصمود والمقاومة في فلسطين ومن أجل تجاوز أنظمة الاستبداد والتبعية والتخلف وتصفية التحالف البورجوازي الكومبرادوري – البيروقراطي ، لتحقيق انتقال مقاليد القيادة إلى "الطبقات" والشرائح الاجتماعية الكادحة الأكثر جذرية القادرة وحدها على توفير عناصر ومقومات القوة الاقتصادية والعسكرية القادرة على هزيمة إسرائيل وإقامة فلسطين الديمقراطية لكل سكانها في مجتمع عربي اشتراكي موحد .

"إسرائيل" متحف الأجناس

اقتبسنا عنوان هذه الورقة من كتاب د.جمال حمدان "اليهود أنثروبولوجيا"، الذي يقول فيه "إن إسرائيل استعمار سكاني مبني على نقل السكان من الخارج إلى فلسطين"، وهو لا يوافق على دراسة اليهود باعتبارهم "الشعب المختار في الرؤية الصهيونية"، ولا هم شياطين ملاعين "قوة الشر الأزلية حسب الرؤية المعادية لليهود" فكلتا الرؤيتين –كما يقول– تشكل كل منهما تسمية متميزة تنطلق من رؤية اليهود باعتبارهم وحده (كتلة عضوية من الملائكة أو الشياطين) وهو يرفض هذا المنطق، ويضع اليهود، كما أي ظاهرة أخرى، في النقطة التي يتقاطع فيها الخاص مع العام والكل مع الجزء، فاليهود هم بالدرجة الأولى جزء من الظاهرة الاستعمارية–الاستيطانية الاحلالية العامة، ومع هذا فثمة ملامح خاصة فريدة لهم: فـ"العودة" اليهودية إلى فلسطين –كما يؤكد د.جمال حمدان– ليست عودة توراتية أو تلمودية أو دينية وإنما هي "عودة" إلى فلسطين بالاغتصاب وهو غزو وعدوان غرباء لا عودة أبناء قدامى، إنه استعمار لا شبهة فيه بالمعنى العلمي الصارم، يشكل جسماً غريباً دخيلاً مفروضاً على الوجود العربي، غير قابل للامتصاص.. فهم ليسوا عنصراً جنسياً في أي معنى بل جماع ومتحف حي لكل أخلاط الأجناس في العالم كما يدرك أي أنثروبولوجي، باختصار إن يهود العالم اليوم مختلطون في جملتهم اختلاطاً أبعدهم تماماً عن أي أصول إسرائيلية فلسطينية قديمة، إن اليهود اليوم إنما هم أقارب الأوروبيين والأمريكيين، بل هم في الأعم الأغلب بعض وجزء منهم وشريحة، لحماً ودماً، وإن اختلف الدين، ومن هنا اليهود في أوروبا وأمريكا ليسوا كما يدعون غرباء أو أجانب دخلاء يعيشون في المنفى وتحت رحمة أصحاب البيت، وإنما هم من صميم أصحاب البيت نسلاً وسلالة، لا يفرقهم عنهم سوى الدين.

كان جمال حمدان صاحب السبق في فضح أكذوبة ان اليهود الحاليين هم أحفاد بني إسرائيل الذين خرجوا من فلسطين خلال حقب ما قبل الميلاد ، واثبت في كتابه "اليهود أنثروبولوجيًا" الصادر في عام ١٩٦٧ ، بالأدلة العملية أن اليهود المعاصرين الذين يدعون أنهم ينتمون إلى فلسطين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمي هؤلاء إلى إمبراطورية "الخزر التترية" التي قامت بين "بحر قزوين" و"البحر الأسود"، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي.. وهو ما أكده بعد ذلك بعشر سنوات "آرثر كويستلر" مؤلف كتاب "القبيلة الثالثة عشرة" الذي صدر عام ١٩٧٦ .

وإذا كان الباحث المصري الدكتور عبد الوهاب المسيري قد نجح من خلال جهد علمي ضخم في تفكيك الأسس الفكرية للصهيونية، فإن جمال حمدان كان سباقا في هدم المقولات الإنثروبولوجية التي تعد أهم أسس المشروع الصهيوني ، حيث أثبت ان إسرائيل – كدولة – ظاهرة استعمارية صرفة

، قامت على اغتصاب غزاة أجانب لأرض لا علاقة لهم بها دينياً أو تاريخياً أو جنسياً ، مشيرا إلى ان هناك "يهوديين" في التاريخ ، قدامى ومحدثين ، ليس بينهما أي صلة أنثروبولوجية ، ذلك أن يهود "فلسطين التوراة " تعرضوا بعد الخروج لظاهرتين أساسيتين طوال ٢٠ قرناً من الشتات في المهجر : خروج أعداد ضخمة منهم بالتحول إلى غير اليهودية، ودخول أفواج لا تقل ضخامة في اليهودية من كل أجناس المهجر ، وأقترن هذا بتزاوج واختلاط دموي بعيد المدى ، انتهى بالجسم الأساسي من اليهود المحدثين إلى أن يكونوا شيئاً مختلفاً كلية عن اليهود القدامى .

وفي وقت كان الصهاينة يروجون لأنفسهم كأصحاب مشروع حضاري ديمقراطي وسط محيط عربي إسلامي متخلف ، لم تخدع تلك القشرة الديمقراطية الصهيونية المضللة عقلية لامعة كجمال حمدان ، كما انه لم يستسلم للأصوات العربية الزاعقة التي لا تجيد سوى الصراخ والعويل ، واستطاع من خلال أدواته البحثية المحكمة ان يفضح حقيقة إسرائيل، مؤكدا **" أن اليهودية ليست ولا يمكن أن تكون قومية بأي مفهوم سياسي سليم كما يعرف كل عالم سياسي ، ورغم أن اليهود ليسوا عنصراً جنسياً في أي معنى ، بل "متحف " حي لكل أخلاط الأجناس في العالم كما يدرك كل أنثروبولوجي ، فإن فرضهم لأنفسهم كأمة مزعومة مدعية في دولة مصطنعة مقتطعة يجعل منهم ومن الصهيونية حركة عنصرية أساساً "** .

وعلى الرغم من ان البعض استغرب مطالبة رئيس الوزراء الصهيوني أرييل شارون الفلسطينيين الاعتراف بـ "إسرائيل كدولة يهودية "، وهو الأمر الذي روج له الرئيس الأمريكي جورج بوش في قمة العقبة ، فان جمال حمدان كشف قبل نحو ثلث قرن تلك الحقيقة الطائفية البحتة للمشروع الصهيوني.

وأدرك حمدان مبكرا من خلال تحليل متعمق للظروف التي أحاطت بقيام المشروع الصهيوني ان " الأمن " يمثل المشكلة المحورية لهذا الكيان ، واعتبر ان وجود إسرائيل رهن بالقوة العسكرية وبكونها ترسانة وقاعدة وثكنة مسلحة، مشيرا إلى أنها قامت ولن تبقى –وهذا تدركه جيداً– إلا بالدم و الحديد و النار. ولذا فهي دولة عسكرية في صميم تنظيمها وحياتها ، ولذا أصبح جيشها هو سكانها وسكانها هم جيشها .

وحدد جمال حمدان الوظيفة التي من أجلها أوجد الاستعمار العالمي هذا الكيان اللقيط ، بالاشتراك مع الصهيونية العالمية ، وهي ان تصبح قاعدة متكاملة آمنة عسكرياً ، ورأس جسر ثابت استراتيجياً ، ووكيل عام اقتصادياً ، أو عميل خاص احتكارياً ، وهي في كل أولئك تمثل فاصلاً أرضياً يمزق اتصال المنطقة العربية ويخرب تجانسها ويمنع وحدتها وإسفنجة غير قابلة للتشبع تمتص كل طاقاتها ونزيفاً مزمناً في مواردها " .

لكن **الدعاية الصهيونية تقوم على أكذوبتين أساسيتين، الأولى أن اليهود تعرضوا طوال تاريخهم للاضطهاد ، وبلغ هذا الاضطهاد مبلغه في ألمانيا النازية، ويستدر اليهود عطف العالم بهذه**

الأسطورة، والثانية تقول بأن اليهود يحق لهم تأسيس وطن قومي في فلسطين لأن يهود بني إسرائيل بعد أن خرجوا منها ظلوا بمنأى عن الاختلاط الدموي مع الشعوب التي انتشروا بينها، وعلى هذا فيهود اليوم هم النسل المباشر لبني "إسرائيل التوراة"، "شعب الله المختار"، لكن القراءة الموضوعية لتاريخ ما يسمى بـ "المسألة اليهودية " تؤكد أن ٩٥ % من اليهود المعاصرين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين.

طوائف اليهود الثلاث :

ينقسم اليهود في العصور الحديثة إلي ثلاثة طوائف أساسية، وهي الأشكناز والسفاردي واليهود الشرقيين.

الأشكناز والسفاردي كلمتان قديمتان في التوراة استعارتهما اليهودية في العصور الوسطي لتميز بين يهود ألمانيا ويهود أسبانيا علي الترتيب ، اعتقادا منهم بأن يهود ألمانيا ينحدرون من نسل قبيلة بينامين. والسفارديم يدعون أنهم "أرستقراطية" اليهود، لكن الأشكناز يؤلفون الأغلبية العددية والطبقة المتفوقة حضاريا إلي حد ما لدرجة أنهم يحتقرون السفارديم.

وينتشر الأشكناز اليوم في غرب ووسط وشرق أوروبا ، بالإضافة إلي العالم الجديد ، وجنوب أفريقيا واستراليا. في حين يمثل السفارديم يهود البلقان والشرق الأدنى ، وبعض المستعمرات والجاليات المبعثرة علي شواطئ البحر المتوسط بالإضافة إلي امتدادهم في العالم الجديد.

أما اليهود الشرقيين فإنهم يمثلون مجموعة قائمة بذاتها استمدت أصولها القديمة من فلسطين، وهم إذا كانوا الأقرب إلي الأصول الفلسطينية (و العربية) فإنهم الأقل عددا ومرتبة بين اليهود، وينظر إليهم السفارديم والأشكناز نظرة احتقار وازدراء.

مجتمع الجيتو :

في هذا الفصل يتحدث كتاب جمال حمدان أنه في كل الأماكن التي انتقل اليهود إليها فقد عاشوا في مكان خاص بهم وحدهم، وربما يعود سبب هذه العزلة إلي قوانين الدول التي عاش فيها اليهود احكاما للرقابة عليهم ومنع اختلاطهم بغيرهم ، ولكن كثيرا ما ترجع هذه العزلة إلي صنع اليهود أنفسهم سعيا منهم إلي التركز والاحتشاد في نقطة واحدة ضمانا للحماية.

واليهودي – تاريخياً – مرتبط دائما بالمال والتجارة والسمسرة والربا أبدا، ويكره العمل اليدوي الشاق أو في الخلاء، يكره الجهد الجسماني عامة، ويفضل أن يعيش بعقله لا بعضله. من هنا يبتعد عن الزراعة والصناعة ويركز علي العيش في المدن حيث الأعمال الحرة والمعاملات التجارية والنشاطات

المصرفية والمالية ...الخ. وهذا الأمر هو سبب كراهية الأمم لهم، ولعله – أكثر من التعصب الديني – المصدر الأول لاضطهادهم ومقتهم.

الأصل الجنسي لليهود :

نصل الآن إلي أساس الدعاية الصهيونية، فبعد كل هذا الشتات الذي تعرض له اليهود تحاول آلة الدعاية أن تسخر الأنثروبولوجية لتثبت أن يهود بني إسرائيل بعد أن خرجوا من فلسطين حافظوا على نقائهم الجنسي !.

يفند جمال حمدان تلك الأساطير بالأساليب العلمية، ويؤكد – بعد مقارنة يهود اليوم والمذكورين بالتوراة قديما متتبعا الصفات الجنسية من طول ولون بشرة وغير ذلك – أنه لا توجد وحدة جنسية بين اليهود ككل، ويستشهد بأقوال بعض العلماء اليهود أيضا مثل هوتون Hooton الذي يقرر بجزم قاطع "حقيقة هي لا شك فيها أن اليهود مختلطون جنسيا ومن أصول طبيعية متنوعة".

والسؤال الآن : كيف تم اختلاط أو تخليط اليهود ؟ وما هي الأدلة والشواهد عليه؟ .. لقد كان هناك طريقان أساسيان لانتشار اليهودية وتمددها : التحول الديني سواء من الوثنية أو المسيحية ، والتزواج والامتزاج الدموي ؛ فنجد أن اليهود المذكورين بالتوراة قد تخلطوا في عقر دارهم مع جيرانهم من الفلسطينيين .

وطوال تاريخ اليهود نلمح ظاهرتين : أعداد كبيرة من غير اليهود تدخل اليهودية ، وفي نفس الوقت أعداد من اليهود لا تقل ضخامة تخرج من اليهودية ،وبالتالي فإن جسم طائفة اليهود ليس ثابتا جنسيا بل هو متحرك. ويقرر حمدان حقيقة خطيرة : اليهود جنسيا آريون أكثر منهم ساميين أو بتعبير آخر إنهم أوروبيون تهودوا أكثر منهم يهود تأوربوا .

ويؤكد حمدان بكتابه أيضا أننا لا يمكن علميا أن نستبعد من بعض يهود العالم نسبة ما من الأصل الفلسطيني القديم ، لكن هؤلاء لا يزيدون علي نسبة بالغة الضآلة إلي أقصى حد. وقد توصلت دراسة لعالم بريطاني أن ٩٥ % من اليهود ليسوا من بني إسرائيل التوراة وإنما هم أجانب متحولون أو مختلطون.

وترى الحركة الصهيونية – وفق كتاب جمال حمدان – أن روح الليبرالية المعاصرة، وتطور الوعي في المجتمعات الصناعية والتسامح الديني كلها طفرات تهدد بانتهاء اضطهاد اليهود ونهاية الموقف ضد السامية ، وبالتالي تهدد بسقوط الستار الحديدي الذي فرضه اليهود على أنفسهم، وتهدد بذوبانهم في شعوب الأمم الأخرى ، ومن هنا تشدد في استبقاء مناخ الاضطهاد وتجسيد أسطورته إلي الأبد لتوقف تيار الذوبان الغلاب الذي يفرض نفسه ويتمثل في التزواج المختلط مع غير اليهود، وفي تحول بعض اليهود إلي عقائد أخرى. ويتنبأ حمدان أن يتناقص – لهذا السبب – يهود أمريكا مع تسارع العلمانية..

أفكار خاطئة :

مادام اليهود لم يعودوا من الساميين فيمكننا أن نرى الخطأ الشائع في تسمية اضطهاد اليهود بمعاداة السامية، فنحن في الحقيقة مع تفسير الاضطهاد النازي لليهود في ألمانيا لم يكن في جوهره إلا اضطهاد ألمان لألمان ، لا يقل معظمهم عنهم في الآرية والنوردية. وإنما يختلفون فقط في الديانة وطريقة الحياة .

إن اليهود اليوم أقارب الأوروبيين والأمريكيين، ومن هنا فإن اليهود في أوروبا وأمريكا ليسوا غرباء او دخلاء أجانب يعيشون في المنفي وتحت رحمة أصحاب البيت بل هم من صميم أهل البيت نسلا وسلالة لا يفرقهم عنهم سوى الدين، إذن اليهود غرباء فقط في فلسطين .

وانطلاقا من هذا يسقط كذلك أي ادعاء سياسي للصهيونية في "ارض الميعاد" . فبغض النظر عن أن القانون الدولي يتكفل بشجب إدعاءاتهم على أي أساس تاريخي أو ديني، فان الانثروبوجيا تبدد أي أساس جنسي قد يزعمون في هذا الصدد. فمن ناحية **ليس اليهود قومية ولا هم شعب أو أمة بل هم مجرد طائفة دينية تتألف من أخلاط من كل الشعوب والقوميات والأمم والأجناس .**

المسألة اليهودية: تفسير ماركسي[١]

في أوروبا، وطوال قرون عديدة، ظلت كلمة تاجر تعني يهوديا وكلمة يهودي تعني تاجرا. إلا أنه في فترات تاريخية لاحقة أصبحت كلمة يهودي مرادفا لكلمة مرابي، وارتسمت صورة سيئة للغاية لهذا المرابي في أذهان الأوروبيين. فهو شخص معدوم الضمير لا رحمة في قلبه، الشيء الوحيد الذي يملأ قلبه ويشغل عقله هو المال. وخير تجسيد لهذه الصورة شخصية شايلوك في مسرحية "تاجر البندقية" لشكسبير.

لكن لماذا احتكر بعض اليهود التجارة لفترات تاريخية طويلة؟ وكيف تحولوا إلى مرابين؟ وما هي الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي خلقت كراهية اليهود في نفوس الأوروبيين؟ وكيف أفرزت تلك الكراهية الصهيونية؟ تلك الأسئلة هي محور كتاب "المسألة اليهودية: تفسير ماركسي" الذي كتبه الاشتراكي الثوري أبراهام ليون[٢] عام ١٩٤٢.

يعد هذا الكتاب واحدا من أهم كلاسيكيات الفكر الماركسي في القرن العشرين. ذلك أنه عرض رؤية متكاملة وعلمية لتاريخ الجماعات اليهودية منذ بداية ظهورها على مسرح التاريخ وحتى بداية القرن العشرين. وفيه أيضا قدم ليون تفسيرا لنشأة "المسألة اليهودية" في أوروبا في أواخر القرن التاسع عشر، كما انتقد بعنف الأساطير المؤسسة للصهيونية.

---

[١] **سيد عبد الرحمن – مركز الدراسات الاشتراكية**– أوراق اشتراكية – مارس ٢٠٠٩ .

[٢] **ولد أبراهام ليون في بولونيا في أكتوبر ١٩١٨ في أسرة يهودية تنتمي للبرجوازية الصغيرة وتتبنى الأيديولوجية الصهيونية باعتبارها الحل الوحيد للخلاص من اضطهاد اليهود. هكذا نشأ ليون، كغيره من أبناء البرجوازية اليهودية الصغيرة في بدايات القرن العشرين، في أحضان الصهيونية. لكن قصة تحوله إلى معاد للصهيونية جاءت عقب تعرفه على الاشتراكية الثورية. ففي عام ١٩٣٦ استمع ليون، ذو الثمانية عشرة عاما، إلى خطيب ثوري يشعل حماس العمال يدعى ولتر دوج، وهو المؤسس الأول للحزب الاشتراكي الثوري في بلجيكا. لكن مع تعمقه في فهم الماركسية بدأ يشك في صحة الأفكار الصهيونية. وقرر أن ينحاز لفكرة النضال من أجل الاشتراكية الأممية. ثم بدأ ليون البحث في تاريخ الجماعات اليهودية. حيث اطّلع على عدد كبير من الدراسات والوثائق حول تاريخ الجماعات اليهودية. وخلال البحث اكتشف حقائق تناقض الأساطير الصهيونية، مما دفعه لقطع صلته بالصهيونية. وبالفعل نشر ليون بعض مقالاته في المجلة الأسبوعية "النضال العمالي"، وأدان بكل صراحة نشاطه السابق، وفضح الصهيونية باعتبارها أيديولوجية خيالية للبرجوازية الصغيرة وأداة في يد الرأسمالية العالمية لضرب نضال الشعوب. وانحاز ليون للأفكار الاشتراكية الحقيقة القادرة على تخليص البشرية من مساوئ وقسوة النظام الرأسمالي القائم على الاستغلال والنهب، وذلك بالنضال المشترك للمُضطهَدين والمُستغَلين ضد الرأسمالية، بغض النظر عن العرق واللون والنوع والدين. بدأ النضال الثوري لأبراهام ليون بعد نجاحه في تحرير ذاته وعدد من رفاقه من التراث الصهيوني. حيث تمكن من تشكيل حلقة دراسية بهدف جذب المنتسبين إليها . وفي يوليو عام ١٩٤١ نجح في بناء الحزب وعمل على ربطه بالمنظمات الثورية في أوروبا والعالم. هذه هي الأجواء التي كتب فيها ليون كتابه القيم "المسألة اليهودية"، الذي انتهى منه في عام ١٩٤٢ وعمره أربعة وعشرون عاما فقط، حيث عمل بجهد من أجل تنظيم الطبقة العاملة في بلجيكا وناضل ضد الصهيونية والنازية التي نجح جنودها في اعتقاله عام ١٩٤٤. بعدها تعرض ليون لأيام طويلة من التعذيب الجسدي والنفسي على يد الجستابو بهدف جعله يتكلم. وبعد أسابيع من العمل الشاق في شق الطرق، نقل إلى الحجر الصحي، ثم إلى التفتيش الصحي، ومنه إلى غرف الغاز. هكذا اغتالت النازية المناضل أبراهام ليون في سبتمبر ١٩٤٤ وعمره ستة وعشرون عاما.**

إن فهم المسألة اليهودية هو المدخل لفهم الصهيونية التي تدعي أنها حل لتلك المسألة. ومصطلح "المسألة اليهودية" الذي ظهر في القرن التاسع عشر كان يقصد منه توصيف حالة العداء والكراهية ضد اليهود في أوروبا في تلك الفترة التاريخية، الأمر الذي وصل إلى تنظيم مذابح ضخمة ضد اليهود في روسيا القيصرية وغيرها.

"المسألة اليهودية" :

يتكون كتاب "المسألة اليهودية: تفسير ماركسي" من ثمانية فصول. يحمل الفصل الأول عنوان "المقدمات المنطقية لدراسة علمية لتاريخ اليهود"، وفيه **يعرض أبراهام ليون للتصور الخيالي الذي تتبناه الأيديولوجية الصهيونية للهيكل العام لتاريخ اليهود، والذي يفترض أن "الأمة اليهودية" قبل تدمير القدس (عصيان بركوخبا Kochba Bar) لم تكن تختلف عن غيرها من الأمم** (الأمة الرومانية والأمة الإغريقية) المتكونة طبيعيا. لكن الحروب بين الرومان واليهود أدت إلى تشتت اليهود، وفي الشتات قاوم اليهود بضراوة الاندماج القومي والديني. وكان "يهود الشتات" في البداية يعملون في قطاعات مختلفة (زراعة، صناعة، تجارة). وفشلت محاولات تحويل اليهود إلى المسيحية نتيجة إخلاصهم الديني. ويدعي هذا التصور أن الاضطهادات الدينية دفعت اليهود إلى التمركز أكثر فأكثر في التجارة وعمليات الربا، كما صعّدت الحملات الصليبية، وما أثارته من تعصب، من تحول اليهود إلى مرابين، وأدت إلى انزواء اليهود في الجيتو Ghetto.

هذا التصور لتاريخ الجماعات اليهودية يفترض تاريخ موحد لليهود في كل بقاع الأرض. وينطلق هذا التصور الاختزالي من أنه لا يمكن فهم تاريخ اليهود إلا من خلال كونهم يهود. وقد استند ليون إلى مجموعة من الحقائق التاريخية لتكذيب هذا التصور المثالي. هذه الحقائق عرضها بإيجاز في الفصل الأول، ولكنه فصّلها في بقية فصول الكتاب الذي يقدم تصورا مغايرا لتاريخ الجماعات اليهودية مستندا لعدة شروط منهجية وضعها ماركس في كتابه "المسألة اليهودية" (١٨٤٤)، مثل "يجب ألا نبدأ تفسير تاريخ اليهود انطلاقا من الدين اليهودي"، و"لم تستمر اليهودية، بالرغم من التاريخ، ولكن استمرت بحكم التاريخ"، و"**يجب البحث عن العناصر غير الدينية في الصراعات الدينية**".

اليهود والتجارة :

يسرد ليون في الفصل الثاني من كتابه تاريخ الجماعات اليهودية في الفترة ما بين عصر الإمبراطوريات القديمة (مصر– آشور– الإغريق – الرومان) وحتى أواخر القرن العاشر ميلاديا. يبدأ الكاتب الحديث عن الموقع الجغرافي لسوريا وفلسطين، اللتان وقعتا بين أقدم وأكبر مركزين حضاريين في حوض البحر المتوسط، وهما مصر وآشور. هذا الموقع لعب دورا حاسما في الطابع

التجاري لكل من الفينيقيين (الذين سكنوا الجانب الشرقي من ساحل المتوسط) والكنعانيين (سكان فلسطين قديما)، ثم العبرانيين اليهود الذين استوطنوا فلسطين في مرحلة لاحقة.

فسر ليون انتشار اليهود خارج فلسطين بسبب طبيعتها الجبلية التي لا تــُوفر لعدد كبير من سكانها حياة كريمة، مما دفع أعداد كبيرة من السكان إلى الهجرة. وليون هنا ينقد الأسطورة الصهيونية التي ترجع "التشتت اليهودي" إلى حرب الرومان ضد اليهود، الأسطورة التي تقول أن "التشتت" حدث بعد تدمير الهيكل. تلك الأسطورة تتناقض مع حقيقة أنه قبل عصيان بركوكبا وتدمير القدس كان ثلاث أرباع اليهود يعيشون خارج فلسطين (٣.٥ مليون يهودي خارج فلسطين، وأقل من مليون داخلها). وبالرغم من ذلك فإن الأسطورة الصهيونية تبالغ في النفي البابلي (٥٨٧ ق.م)، في عصر نبوخذ نصر، وتدعي أنه سبب أساسي في "التشتت اليهودي"، رغم أن السبي البابلي لم يمس إلا قسم من الطبقة الحاكمة في فلسطين.

انتقد ليون أسطورة أخرى من الأساطير المؤسسة للصهيونية، تلك التي تتحدث عن اضطهاد اليهود في كل زمان ومكان. وفي هذا الصدد يذكر أن اليهود تمتعوا بوضع متميز في الإمبراطورية الرومانية وحازوا على امتيازات خاصة في الإسكندرية وروما. ففي الإسكندرية التي بلغ عدد الذين اعتنقوا اليهودية فيها حوالي مليون نسمة، عين الرومان يهوديا حاكما على المدينة، واندمج اليهود المقيمون في الإسكندرية تماما ولم يعودوا يفهمون سوى الإغريقية، ومن أجلهم ترجمت الكتب الدينية العبرية إلى الإغريقية. كما انتشر اليهود في إيطاليا وبلاد الغال وأسبانيا، وظلت القدس تمثل مركزا دينيا لليهودية فحسب. وأوضح ليون "**أنه لخطأ أن نعتقد أن فلسطين كانت مسكونة بالكامل باليهود.** ففي الشمال كانت هناك العديد من المدن اليونانية، أما باقي فلسطين فكان مسكونا بخليط من قبائل من المصريين والعرب والفينيقيين".

أكد ليون أنه بالرغم من أن أغلبية اليهود لعبت دورا تجاريا في الإمبراطورية الرومانية، فلا يجب أن نعتقد أن كل اليهود كانوا من أثرياء التجار، بل على العكس كان معظمهم من الفقراء الذين يعيشون بشكل ما على التجارة، مثل الباعة الجوالين والحرفيين الصغار وعمال شحن السفن. تمركز هؤلاء الفقراء بأعداد كبيرة في المدن التجارية، وكانت تلك هي المجموعات اليهودية التي عانت من تعسف الحكم الروماني، كما عانت من سقوط وانهيار الإمبراطورية الرومانية.

لم يمارس الرومان التجارة. حيث ظهرت قوانين تحظر على الشيوخ (Senators) وأبنائهم ممارسة التجارة أو امتلاك بواخر تجارية. ذلك أن الطبقات الحاكمة الرومانية كانت تزدري التجارة والتجار. وظلت التجارة في الإمبراطورية الرومانية في أيدي الأجانب (خاصة اليهود).

وذكر ليون أنه **قبل بداية العصر المسيحي ازداد التهويد، حيث كان مغريا لكثير من الفئات الاجتماعية الانضمام إلى التنظيم التجاري المزدهر (اليهودية).** ثم تحدث عن انتشار المسيحية التي وجدت أرضا خصبة بين جماهير المدن والريف الفقراء، وأوضح كيف تبنت الطبقة الحاكمة الرومانية

المسيحية، وحولتها إلى أيديولوجية لخداع الطبقات الفقيرة. وبيّن أن **انتشار المسيحية في أنحاء أوروبا ترافق مع انتشار الاقتصاد الطبيعي. لذلك غُلِفت المسيحية في تلك الفترة بقيم تمجد النشاط المرتبط بالزراعة، محور الاقتصاد الإقطاعي، وتحتقر التجارة. حيث كان يردد رجال الدين المسيحي "أنه من الصعب أن يرضى الله عن التاجر، وكل تجارة تحتوي على مقدار ما من الغش". هكذا رفض الكثير من التجار اليهود التحول إلى المسيحية، لأن معنى ذلك التخلي عن النشاط الاقتصادي المميز، وهو التجارة، والنزول إلى مرتبة الفلاحين الأقنان.** وبالرغم أن المسيحية ظهرت في أوساط اليهود، وأن المسيحيين الأوائل كانوا يرون أنفسهم يهودا، فإن اليهود كانوا أكثر الناس معارضة للمسيحية. هكذا يفسر الوضع الاقتصادي تعلق اليهود بديانتهم وليس العكس، إذ ليس صحيحا القول بأن إيمان اليهود باليهودية أكسبهم وضعية اجتماعية خاصة.

فسر أبراهام ليون اشتغال اليهود في أوروبا دون غيرهم بالتجارة، من خلال فهم الاقتصاد الطبيعي economy natural الذي ساد أوروبا لفترة طويلة. حيث أن المجتمع ذو الاقتصاد الطبيعي ينتج ما يحتاجه ويستهلك كل ما ينتجه، بمعنى أنه ليس هناك ضرورة لتبادل المنتجات مع المجتمعات الأخرى. لذلك كانت التجارة تعد نشاطاً غريباً وهامشياً في المجتمعات الإقطاعية في العصور الوسطى. بالتالي كان التجار من الأجانب، وانحصر دور التجارة في تقديم المنتجات الكمالية الترفيهية للملوك والنبلاء والسادة الإقطاعيين، خاصة المنتجات القادمة من الشرق، مثل التوابل والعطور. هكذا وُجد رأس المال بشكل هامشي في مسام المجتمع الإقطاعي (على حد تعبير ماركس)، التي استطاع التجار اليهود الأجانب التغلغل فيها.

معاداة اليهود في أوروبا :

لم تبدأ كراهية اليهود مع المسيحية، حيث كانت موجودة قبل ذلك. فالكراهية ترجع في الأساس لمعارضة مجتمع الاقتصاد الطبيعي للتجارة، بمعنى أن منبع الكراهية طبقي وليس ديني. لم تكن كراهية اليهود في أوروبا في القرون العشرة الأولى من عمر المسيحية تهدف إلى القضاء عليهم. فبينما كانت المسيحية الرسمية تضطهد عبدة الأصنام دون رحمة، كان وضع اليهود يتحسن باستمرار حتى القرن الثاني عشر.

استمر النظام الإقطاعي في أوروبا الغربية حتى القرن الحادي عشر، بينما استمر في أوروبا الشرقية حتى أواخر القرن الثامن عشر. خلال تلك الفترة تمتع اليهود بحماية الملوك والنبلاء، وكانت فترة رخاء اقتصادي للتجار اليهود الذين شكلوا طبقة اجتماعية منفصلة ومختلفة عن طبقة الإقطاعيين والفلاحين الأقنان. وحرصت تلك الطبقة على الحفاظ على المكانة الاقتصادية المتميزة، عن طريق رفض الاندماج، وعن طريق المحافظة على دينهم وعلى بعض خصائصهم الثقافية المختلفة، ذلك أن

الاندماج في المجتمع المحيط كان يعني التحول إلى المسيحية، التي غُلِفت بأيديولوجية تحرم التجارة وتنظر لها بازدراء، مما يعني نزول التاجر اليهودي إلى مرتبة قن الأرض.

أوضح ليون دلالة اختفاء اللغة العبرية مبكراً كلغة حية، حيث تبنت الجماعات اليهودية لغة الشعوب التي تعيش في أواسطها، وأخذ هذا التبني شكل لهجات جديدة، مثل "عبرية–عربية"، "عبرية–أسبانية"، "عبرية–ألمانية" والتي تعرف بالإديشية. عبّر هذا التكيف اللغوي عن اتجاهين متعارضين في أوساط الجماعات اليهودية، اتجاه نحو الاندماج في المجتمع المحيط، واتجاه انعزالي نابع من الواقع الاجتماعي الاقتصادي المتميز.

قبل دخول الإسلام شمال أفريقيا كان عدد كبير من اليهود فيها يمارس الزراعة، وقد اندمج معظم هؤلاء بالسكان المحليين، ذلك أن الزراعة ساعدت على انتشار اليهود في تلك الأنحاء، وتوقف هؤلاء اليهود عن تشكيل طبقة خاصة بهم (غريبة ومعزولة)، مما أدى بعد عدة أجيال إلى الاندماج الكامل مع بقية السكان. هذه الحقيقة جعلت ليون يصيغ قانون سماه قانون الاندماج "Assimilation Law": "عندما يتوقف اليهود عن تكوين طبقة سيفقدون ، سواء بسرعة أو ببطء، خصائصهم العرقية، والدينية، واللغوية، ويندمجون في المجتمع".

عهد المرابي اليهودي :

تحت هذا العنوان، يتحدث الفصل الثالث من الكتاب عن **الفترة الممتدة من القرن الحادي عاشر وحتى القرن التاسع عشر. حيث دخلت أوروبا الغربية منذ بداية القرن الحادي عشر طورا جديدا من التطور الاقتصادي السريع والمكثف بظهور برجوازية محلية تجارية وصناعية، حيث دفعت التجارة، بشكل تدريجي، الإنتاج المحلي إلى الأمام، وبدأ الإنتاج للتبادل يحل تدريجيا محل إنتاج قيم استعمالية. وظهر الصوف الإنجليزي، وجوخ الفلاندر، وملح البندقية، والنحاس الدينانتي، وغيرها..**

أدى تراكم الثروات السريع إلى نمو مضطرد لطبقة تجارية محلية بدأت تنافس التجار اليهود، الذي ظلت التجارة طوال القرون العشر الماضية في أيديهم، في الأغلب. هذا التنافس سحق مركز اليهود التجاري، حيث حل تجار مسيحيون محل التجار اليهود. ورافق هذا اضطهاد دموي ضد اليهود، وقد وفرت الحروب الصليبية – التي تعبر عن إرادة الطبقة التجارية الجديدة في شق طريقها إلى الشرق – الفرصة للقيام باضطهاد اليهود وبمذابح ضدهم. وبدأ الدور التجاري لليهود ينهار، لكن ظل عدد من اليهود يمتلك من المال ما يكفي لكي يقرض السادة الإقطاعيين والنبلاء والملوك. مما أدى إلى انتقال عدد من ممتلكات النبلاء إلى أيدي اليهود، بفضل معدل الربا المرتفع الذي كان يتراوح بين ٤٣% إلى ٨٦%.

فإذا كانت كلمة "يهودي" مرادفة لكلمة "تاجر" طوال القرون العشر الأولى للميلاد، ففي أوروبا الغربية، وبشكل تدريجي منذ القرن الحادي عشر، بدأت كلمة "يهودي" تقترن بكلمة "مرابي". كان المرابي يقرض الإقطاعيين والملوك لرفاهيتهم ولمصاريف الحرب، ويقرض المزارعين والحرفيين ليتمكنوا من تسديد الرسوم المستحقة منهم. ومن المعروف أن الأموال التي يُقرضها المرابي لا تخلق أي قيمة فائضة، بل تمكن المرابي من الاستيلاء على جزء من القيمة الفائضة. أدى هذا إلى اتساع كراهية اليهود بين طبقات عدة (النبلاء الإقطاعيين، والفلاحين، والحرفيين).

هكذا اختفى اليهود من المجال التجاري وتحولوا إلى مرابيين زبائنهم، في الأغلب، هم الملوك والنبلاء. **ولكن دخول الاقتصاد التبادلي إلى الزراعة وفر الكثير من الأموال في يد النبلاء مما مكنهم من التخلص من سيطرة المرابيين اليهود. هكذا ضاقت سبل العيش بكثير من أعضاء الجماعات اليهودية، وأخذت تتنقل من بلد إلى بلد، واندمج عدد آخر منها في البرجوازية المحلية، وفي بعض المدن الإيطالية والألمانية تحول بعض اليهود إلى مرابين صغار للطبقات الشعبية يستغلون الناس مما جعلهم في كثير من الأحيان عرضة للانتفاضات الشعبية.**

ففي عام ١٢٩٠ طرد جميع اليهود من إنجلترا وصودرت ممتلكاتهم، وكان اليهود في فرنسا المجزأة بين عدد من الأمراء والسادة في القرن الثالث عشر عرضةً للابتزاز بشكل كبير من قبل هؤلاء الأمراء، حيث كانت تصدر، بشكل متكرر، أحكام جماعية ضد مجموعات من اليهود بالطرد، ثم يسمح لهم بالبقاء مقابل دفع رسوم، بخلاف الضرائب. وقد تم طرد اليهود من فرنسا في نهاية القرن الرابع عشر، ومن أسبانيا في نهاية القرن الخامس عشر. كل هذا دفع عدد كبير من اليهود إلى الهجرة إلى أوروبا الشرقية، التي استمر فيها النظام الإقطاعي حتى نهاية القرن الثامن عشر، مما مكن هؤلاء اليهود من ممارسة وظائفهم التقليدية (التجارة والربا).

لقد كان اليهود في أوروبا يشكلون جماعات لها وظائف اقتصادية محددة، وبالتالي مصالح طبقية محددة. لذا حرصت الجماعات اليهودية على عدم الاختلاط بباقي الطبقات الشعبية والاندماج في المجتمع، حفاظا على المصالح الطبقية المميزة. لذلك كان الحفاظ على بعض الخصائص الدينية والعرقية واللغوية تعبيرا عن الرغبة في عدم الاندماج أو الذوبان في المجتمع المحيط. وبالرغم من هذا شكل اليهود، في الحقيقة، مزيجا عرقيا متنوعا جدا، وقد اختلطوا بعناصر عرقية غير سامية متعددة، ففي إنجلترا جلب احتكار اليهود للربا ثروات ضخمة لهم مما دفع بعض المسيحيين للتهود من أجل المساهمة في هذا النشاط المربح. هكذا يتضح أن الجماعات اليهودية نتاج لعمليات من الانتقاء والانتخاب الاجتماعي.

اليهود والرأسمالية :

يحمل الفصل الرابع العنوان التالي "اليهود في أوروبا بعد عصر النهضة"، وفي بدايته ينقد ليون نظرية "سومبارت" عن "اليهود والحياة الاقتصادية"، تلك النظرية التي تمجد الدور الاقتصادي لليهود بشكل مبالغ فيه، حيث تدعي أن "اليهود دفعوا النهضة الاقتصادية في البلدان والمدن التي استقروا فيها إلى الأمام، وأدوا إلى الانهيار الاقتصادي في البلدان والمدن التي هجروها"، ويدعي "أنهم مؤسسو الرأسمالية الحديثة"، برهن ليون على عدم صحة نظرية "سومبارت" من خلال قراءة متأنية لتاريخ الجماعات اليهودية في أوروبا الغربية.

في الجزء الثاني من هذا الفصل تحدث ليون عن أوضاع الجماعات اليهودية في أوروبا الشرقية، التي لجأ إليها الكثير من أبناء الجماعات اليهودية، حيث لم تصل إليها الرأسمالية بعد، حتى يتمكن هؤلاء من ممارسة مهنهم التقليدية (التجارة والربا). وتدريجيا أصبح أغلبية اليهود في العالم تعيش في أوروبا الشرقية، وخاصة بولونيا التي تمتعت فيها الجماعات اليهودية بحماية الملوك، لأنهم كانوا مصدر هام للخزانة الملكية. اشتغل اليهود في التجارة، والمصارف، والجمارك. كان النبلاء هم زبائن المرابين اليهود، لذلك كان النبلاء في حالة صدام دائم مع اليهود. **ظل وضع الجماعات اليهودية في بولونيا جيدا حتى القرن السابع عشر، حيث بدأ المجتمع الإقطاعي يعاني من مشاكل ضخمة، عندها تدهور الوضع الاجتماعي لليهود، وأصبح اليهودي مجرد وكيل أعمال للسيد النبيل، أو جابي ضرائب، أو خمار، بالتالي أصبح مكروها من الفلاحين، لأنه تحول إلى أداة رئيسية لاستغلالهم في يد النبلاء.**

الفصل الخامس يحمل عنوان "تطور المسألة اليهودية في القرن التاسع عشر"، في البداية يوضح الكاتب بالإحصاءات أن أكثر من ٨٦% من يهود أوروبا الشرقية كانوا يعملون بالتجارة، وأن حوالي ١١% حرفيين، وأقل من ٢% مزارعين. لكن هذا التمايز الاجتماعي الذي ميز تاريخ الجماعات اليهودية في ظل الإقطاع تعرض لتغيرات جوهرية مع بداية ظهور الصناعة في أوروبا الشرقية، ومع ظهور برجوازية محلية. حيث أدى تطور الرأسمالية في أوروبا الشرقية إلى نتائج كارثية، فقد كان معدل هدم النظام الإقطاعي أكبر بكثير من قدرة الرأسمالية على توفير فرص عمل. وتفاقم وضع اليهود بشدة وكان الحل هو الهجرة، حيث سعت الجماهير اليهودية إلى ترك الأماكن التي انهار فيها الاقتصاد الإقطاعي إلى أماكن يمكن إيجاد فيها مصدرا للرزق. بينما كان متوسط الهجرة في بداية القرن الثامن عشر ٤.٥ ألف مهاجر سنويا، وصل في بداية القرن العشرين حوالي أكثر من ١٥٠ ألف مهاجر سنويا.

تحت عنوان "الاتجاهات المتناقضة للمشكلة اليهودية في فترة صعود الرأسمالية" تحدث الفصل السادس من الكتاب عن مرحلة صعود الرأسمالية الصناعية في أوروبا الغربية، التي نجحت في الاستيعاب الاقتصادي لجزء كبير من اليهود، بدخولهم صفوف البرجوازية الأوروبية، واندمج هؤلاء

في مجتمعاتهم ثقافيا واجتماعيا، بل تحول عدد كبير منهم إلى المسيحية، وإن لم تختف اليهودية بشكل كامل من الغرب. ثم أوضح المؤلف **أن ظهور المسألة اليهودية في أوروبا الغربية لاحقا في القرن التاسع عشر يرجع إلى التخلف الاقتصادي لأوروبا الشرقية، حيث أن دخول الرأسمالية إليها أدى إلى إفقار الكثير من جماهير الفلاحين والحرفيين، ودمر الوظائف التقليدية لغالبية اليهود، وهذا ما دفعهم إلى الهجرة إلى أوروبا الغربية وأمريكا. وهكذا انتقل عدد كبير من يهود أوروبا الشرقية إلى أوروبا الغربية. كما حدث تمركز لليهود بأعداد كبيرة في المدن، وترافق ذلك مع معدل مرتفع للمواليد بين اليهود، مما أدى إلى إثارة النعرات القومية ومعاداة اليهود.**

تناول ليون في الفصل السابع "**اضمحلال الرأسمالية والمأساة اليهودية في القرن العشرين**"، **وكيف أنتجت الرأسمالية المسألة اليهودية. ذلك أن الرأسمالية – التي دخلت مرحلة الأزمة – فشلت في دمج اليهود في المجتمع الرأسمالي. فقد اختفى التاجر اليهودي لعصر "ما قبل الرأسمالية" ، بدون أن يتمكن ابنه من إيجاد مكان في الإنتاج الحديث، وتحول ذلك اليهودي إلى عنصر فائض لا فائدة منه ويجب التخلص منه.**

في هذا الفصل يتحدث ليون عن ظهور الصهيونية التي برزت كردة فعل من البرجوازية اليهودية الصغيرة، التي شكلت أغلبية اليهود في أوروبا، على الاضطهاد التي عانت منه وجعلها تجبر على الانتقال من بلد إلى بلد. حيث أن إعادة هيكلة الاقتصاد الروسي عام ١٨٦٣ جعل وضع الجماهير اليهودية في المدن الصغرى لا يحتمل اقتصاديا، مما دفعها للهجرة إلى أوروبا الغربية. وفي الغرب أخذت الفئات الوسطى الأوروبية المسحوقة توجه غضبها ضد اليهود، **مما دفع بالأفكار الصهيونية للانتشار بين أوساط اليهود. فبعد مذابح ١٨٨٢ في روسيا، ظهر كتاب ليوبنسكر "التحرر الذاتي"، وبعد قضية دريفوس[1] ظهر كتاب "الدولة اليهودية" لتيودور هرتزل ١٨٩٦. وفي عام ١٨٩٧ عقد المؤتمر الصهيوني الأول في بازل.**

ظهور الصهيونية :

ناقش إبراهام ليون بعض ادعاءات الصهيونية، وأوضح عدم صحتها استنادا إلى الواقع التاريخي، فإذا كانت الصهيونية ترى في سقوط القدس سببا "للتشتت اليهودي"، بالتالي مصدرا لجميع آلام اليهود في الماضي والحاضر، وترى أن عدم قدرة اليهود على الاندماج في مجتمعاتهم ترجع إلى الشعور القومي بضرورة العودة إلى "وطنهم القديم"، فإن ليون طرح السؤال التالي على الصهاينة، لماذا لم يحاول اليهود العودة إلى هذا الوطن المزعوم طوال تلك القرون الطويلة؟ لكن

[1] قضية دريفوس هي قضية ضابط فرنسي يهودي اتهم بالتجسس لصالح ألمانيا وتمت محاكمته بشكل يجافي العدل، وكان هناك إصرار على إثبات التهمة لكونه يهوديا. هذه القضية أحدثت تحولا فكريا عميقا لدى الصحفي تيودور هرتزل الذي كان يقوم بتغطية القضية صحفيا، حيث تحول من شخص مؤمن بفكرة ضرورة اندماج اليهود في مجتمعاتهم، إلى ضرورة إقامة "دولة اليهود".

الصهيونية لا تستطيع الإجابة على هذا السؤال وتتستر بالدين مدعية أنه كان على اليهود انتظار قدوم المسيح. وهنا يطرح ليون السؤال التالي: لماذا اعتقد اليهود في ضرورة الانتظار؟ ثم يجيب ليون بأن الدين يمكن أن يُوظف كانعكاس أيديولوجي لمصالح اجتماعية، حيث كان انتشار اليهود في أرجاء العالم لأسباب اقتصادية، فكان ضروريا وجود تبرير ديني لهذا الانتشار، هذا التبرير هو انتظار المسيح، بينما "حلم العودة إلى صهيون" لم يكن شيئا، كان مجرد حلم لا يتطابق مع أي مصلحة حقيقية لليهود طوال قرون طويلة، بالتالي لم يحاول اليهود العودة.

الصهيونية وليدة الرأسمالية في عصر الإمبريالية، من هنا استنتج ليون أن حل المسألة اليهودية يصبح مستحيلا بدون القضاء على الرأسمالية التي أنتجتها. ففي عصر أزمة الرأسمالية يوجد فائض منتجات وفائض عمالة، بينما العالم بأكمله قد استعمر ودخله التصنيع والنظام الرأسمالي، وأينما حاول اليهود حل المسألة اليهودية بإقامة وطن قومي لهم وحدهم سيصدمون بالقومية المحلية. وبناءً على هذا التحليل يمكننا فهم ما حدث في فلسطين في النصف الأول من القرن العشرين، حيث احتاج الصهاينة لدعم الإمبريالية الإنجليزية للتغلب على المقاومة العربية، واحتاجوا لدعم الإمبريالية الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية لمقاومة النهوض القومي العربي. **إن توافق المصالح بين الإمبريالية البريطانية والصهيونية هو الذي أدى إلى إنشاء دولة عبرية في فلسطين عام ١٩٤٨، وإن توافق المصالح بين الإمبريالية الأمريكية والصهيونية في المرحلة الحالية هو الذي يضمن استمرار الدولة الصهيونية.**

في الفصل الثامن، الذي يحمل عنوان "سبل حل المسألة اليهودية"، استبعد ليون احتمال نجاح تحقق الحلم الصهيوني بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. أرجع ليون هذا إلى أحد التناقضات التي يتضمنها المشروع الصهيوني، حيث أن إقامة وطن لليهود في فلسطين يتطلب رؤوس أموال ضخمة، بالتالي تفرض الصهيونية على الجماهير اليهودية المنتشرة في أرجاء العالم التبرع لصالح هذا المشروع، لكن طالما ظل وضع الجماعات اليهودية في أنحاء العالم محتملا، فلن يكون هناك أي ضرورة تجبر اليهود على التبرع ومساندة الصهيونية، وإذا زاد تعرض الجماهير اليهودية للاضطهاد عندها تقل قدرتهم الاقتصادية على دعم المشروع الصهيوني. ويعد هذا أحد أهم تناقضات المشروع الصهيوني، من وجهة نظر ليون.

لكن الحلم الصهيوني بإقامة دولة تحقق، عام ١٩٤٨، حيث استطاعت الصهيونية تجاوز التناقض السابق عن طريق الدعم الإمبريالي، ومازالت إسرائيل تحوز على هذا الدعم نتيجة للدور الوظيفي لإسرائيل في عصر الإمبريالية الأمريكية. وهذا أحد أهم عناصر ضعف المشروع الصهيوني، حيث بانتهاء دور إسرائيل الوظيفي تختفي إسرائيل من على الخريطة، إذا افترضنا استمرار أزمة قوى حركة التحرر العربية على ما هي عليه .

وفي نهاية الكتاب يقول ليون إن آلام اليهود لن تزول أو يتحسن وضعهم بتحقق الحلم الصهيوني، حيث أن وضع اليهود لا يتعلق بوجود أو عدم وجود دولة يهودية في فلسطين، بل يتعلق بالوضع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي العام. لن تزول مشكلة كراهية اليهود إلا في ظل اقتصاد اشتراكي على مستوى أممي، وهذا لن يتحقق إلا بثورة عمالية أممية.

تكمن أهمية هذا الكتاب[١]، أنه مازال يقدم لنا في القرن الحادي والعشرين الأساس العلمي لفهم الصهيونية، مما قد يساعد المناضلين ضد إسرائيل والصهيونية في فهم ومعرفة حقيقة الصهيونية، وبالتالي استنتاج أفضل الطرق لمواجهتها.

[١] ترجم هذا الكتاب عام ١٩٦٩ تحت عنوان "المفهوم المادي للمسألة اليهودية" وصدر عن دار الطليعة في بيروت. ولكن للأسف كانت الترجمة غير دقيقة وغير صحيحة في كثير من الأحيان، مما شوه الكثير من أفكار المؤلف. كما أن هذه الترجمة لم تلتزم الأمانة في نقل الهوامش، حيث لم ترد أغلبها في النسخة العربية رغم أهمية تلك الهوامش، كما أن المترجم سمح لنفسه بدمج فقرات معا وتقطيع فقرات أخرى، كما تم تجاهل علامات التنصيص والكثير من الإشارات المرجعية الموجودة في النسخة الإنجليزية. لذا نأمل أن يترجم هذا الكتاب الهام مرة ثانية، أو أن تراجع الترجمة مراجعة دقيقة، مما يعود على القارئ والمثقف والمناضل العربي بالفائدة في فهم ومعرفة أبعاد المسألة اليهودية، ومدى ارتباط تلك المسألة بالصهيونية.

مقتطفات من دراسة المفكر التقدمي أديب ديمتري بعنوان :

جــذور العرقيــة الصهيونيــة[1]

بالرغم من كل المآسي والخبرات المريرة المتراكمة منذ قيام الكيان والدولة الصهيونية، والدور النشط والفاعل الذي قامت به الرجعيات العربية منذ ١٩٤٨ وحتى قبلها ابان ثورة ٣٦ ، في شل مقاومة الشعب الفلسطيني وضرب ثورته ، حتى بلغت قمة التسليم والخيانة في كامب ديفيد ، فلا زالت القوى اليمينية الرجعية الفلسطينية والعربية تزرع الأوهام حول فرص السلام المهدورة ، رغم الطريق المسدود الذي وصلته عملية التفاوض العبثي من جهة ورغم تزايد عدوانية الدولة الصهيونية وعنصريتها من جهة ثانية، الأمر الذي أدى بحكومات العدو الصهيوني صوب مزيد من الغطرسة عبر إصرارهم على السلطة الفلسطينية ومعظم النظام العربي القبول بشعار "يهودية دولة إسرائيل" كشرط لاستمرار التفاوض حول السلام المزعوم.

وفي هذا الجانب يقول المفكر أديب ديمتري "**ليست المشكلة فيما تروج له الرجعية العربية من أوهام ، فهذا هو الأمر الطبيعي ، ولكن الغريب هو الاستعداد لتقبل مثل هذه الترهات من جانب بعض القوى الوطنية في أجواء الإحباط واليأس ، وتردي الأوضاع العربية** ".

وفي تقديرنا أن بعض مظاهر البلبلة والغموض وقصور الرؤية المستقبلية ، وبالأخص افتقاد الإستراتيجية الواضحة للصراع العربي الإسرائيلي على امتداد الوطن العربي، مرده إلى قصور ايضا في الرؤية التاريخية للجذور البعيدة للقضية في التاريخ الأوروبي الحديث ، ووقوف الكم الغالب من المعالجات السياسية عند جذورها السياسية الأقرب منذ أخريات القرن التاسع عشر ، وصدور كتاب هرتزل "الدولة اليهودية" في المرحلة الامبريالية ، ومقررات المؤتمر الصهيوني الاول .

بينما تتطلب المعالجة الواعية لهذه القضية بأبعادها الحقيقية ما هو اشمل بكثير من بعدها السياسي . فلا بد من تتبع المراحل التي مر بها تخلق التيارات العرقية والتي انتهت بالفاشية في التاريخ الاوروبي ، وهو بعينه الرحم الذي تخلقت بداخله ظاهرة الصهيونية .

ذلك يقتضينا نظرة سريعة لحركة النهوض الثوري في اوروبا في العصور الحديثة ، ثم حركة الردة والنكوص والثورة المضادة التي افرزت لنا كل هذا الشر .

---

[1] مجلة قضايا فكرية-الكتاب السادس ابريل ١٩٨٨ص١٥

لا يدخل في نطاق بحثنا ادعاء الصهاينة انتماء يهود العالم الى اصل عرقي واحد او شعب تاريخي ، او انهم يشكلون شعبا واحدا مشتتا على نطاق العالم . فهذه كلها ترهات حسمت وانتهى امرها علميا ، سواء من وجهة نظر البيولوجيا ، وعلوم الاجناس والاصول الاثنية وتاريخ الشعوب ، وتاريخ اليهود نفسه ، فلا تستحق المناقشة .

اما القضية ففي جوهرها قضية منهجية : هل هي قضية منعزلة ، متفردة كما يصورها الصهاينة ، قضية "شعب بلا ارض يبحث عن ارض بلا شعب" على حد تعبيرهم ، او قضية الاضطهادات والمذابح التي تعرضوا لها في بلدان اوروبا شرقها وغربها ، او قضية استعادة الوطن التاريخي السليب "أرتس اسرائيل" في "جوديا" و "سماريا" ومن النيل الى الفرات ..!!

أم هي **القضية على حقيقتها ، والتي لا تعالج الا على الاساس المادي التاريخي : قضية في اطار اعم واشمل بكثير ، باعتبارها تيارا وحركة عرقية عنصرية تشكلت كفصيل ضمن التيارات والحركات الاوسع التي ضمت كل التيارات والحركات الشوفينية والعرقية ، وحركات الردة ، والثورة المضادة ، وامتدادتها الكولونيالية الاستيطانية ، في مجرى حركة التاريخ الاوروبي الحديث ، في صعوده وهبوطه ، وفي التحولات الكبرى التي طرأت عليه ، وعلى مواقع الطبقات والقوى الاجتماعية والسياسية والفكرية التي تصارعت ، وتبادلت النفوذ والسلطة والمراكز على مسرح هذا التاريـــخ ؟ تلك هي القضية .**

وبصرف النظر عن دعاوى "الأمة اليهودية" التراثية والدينية ، فان الغالبية الكبرى من المفكرين الصهاينة المحدثين ، وخاصة منهم من يدعون الانتماء لليسار ، او العلمانية ، يعزون "البعث القومي اليهودي" في العصر الحديث لحركات البعث القومي الاوروبي وبخاصة خلال القرن التاسع عشر ، عصر القوميات .

والغريب ان الامر لم يقتصر على الاوروبيين وحدهم ، بل سقط في نفس الخطأ ، عن غير قصد بالطبع ، بعض المفكرين العرب الوطنيين والقوميين . ومن هؤلاء على سبيل المثال د.صادق جلال العظم ، الذي اعتبر الصهيونية في عداد "الحركات القومية للبرجوازية الوسطى اليهودية التي تسعى الى ان تنفرد بسوقها الوطني" كما تبنى مزاعم الصهاينة بأن حركتهم جاءت ثمرة للحركات القومية الاوروبية البرجوازية في القرن التاسع عشر ..!!!

ومصدر المغالطة المقصودة من جانب بعض من عالجوا هذه القضية بنفس المفهوم عربا كانوا او اجانب ، هو خطأ منهجي ، وهو تثبيت وتجميد ظاهرة البعث القومي الاوروبي الحديث من حيث النشأة ثم تطورها وحركتها خلال التاريخ .

وَمَثّلَ هذا الخطأ الشائع في الحقيقة بين المفكرين القوميين ، امتدادا ممن يرون القومية ذات رسالة خالدة منذ الازل الى الابد ، ولا يرون تطورها بين الصعود والهبوط ، التقدم او الردة عبر

تعرجات ومراحل تخضع لحركة المجتمع ذاته ، من حيث حركة طبقاته وفئاته الطبقية ، وفقا لمصالحها ومواقفها .

وعلى سبيل المثال فحركة البعث القومي الاوروبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، عصر التنوير ، وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر عندما اشعلت البرجوازية ثوراتها وتصدت لقيادة مجموع الشعب ، غيرها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

فعلى النقيض تماما من مزاعم الصهاينة ، ان بداية "البعث القومي اليهودي الحديثة" تقترن بحركات البعث القومي الاوروبية الحديثة بعامة ، نقول على العكس تماما من هذا الزعم ، فإن عصور البعث القومي الاوروبي الحديثة ، كانت هي على وجه التحديد بالنسبة لليهود عصور الاندماج والذوبان في شعوبهم والانتماء بالكامل لاوطانهم .

ففي خلال هذه المرحلة التاريخية ، وبعد ان وطدت البرجوازيات الاوروبية المحلية مواقعها ، وشكلت سوقها ، تخلت عن صراعاتها الحادة في المرحلة السابقة الجنينية ضد اليهود . وسرعان ما تحقق الاندماج من خلال السوق بين البرجوازيات المحلية الاوروبية والبرجوازيات اليهودية النامية معها في نفس الوقت ، حتى ظهر تعبير جديد هو "المسيحيون الجدد" بمعنى اليهود المندمجين ، وكانت البرجوازية اليهودية بالذات هي اشدها اندماجا وذوبانا في شعوبها واوطانها ..

فخلال عصر النهضة ، كانت حركة البعث القومي هي حركة وحدة ، لا انفصال ، بين الفئات والطوائف والاديان كافة .. كانت حركة شعوب ، تقودها برجوازية تقدمية ثورية ترفع اعلام الحرية والاخاء والمساواة وهي تصارع بقوة من اجل تحقيق وحدة أوطانها والتغلب على كافة صور التجزئة والانغلاق الاقطاعي ، والتحرر من نير الملوك والتصدي لسلطان الكنيسة وهدم اسوار الجيتو وسطوة الحاخامية .. هي مرحلة التوحد ، لا التجزئة ، الاندماج وليس الانفصال والتمايز ، والانتماء الوطني والقومي لجميع فئات الشعب وطوائفه واديانه .

وباعلان حقوق الانسان على يد الثورة الفرنسية ، وتحرير اليهود ومنحهم حقوق المواطنة والحقوق المدنية، كان اليهود يتحررون ، ويحصلون على حقوق المواطنة ، ويندمجون في شعوبهم الى حد اعتناق المسيحية في بعض الاحيان ، والزيجات المشتركة في اكثر الاحيان .

حركة التنوير اليهودي

موسى مندلسون

كان سلاح البرجوازية الثورية وهي تقود شعوبها نحو الوحدة والتحرر من النير الاقطاعي والتجزئة ، العقل والانوار ..

شهد القرن السادس عشر ثورة مارتن لوثر ضد سلطان الكنيسة والبابوية ، وترجمته للانجيل الى لغة الشعب الالمانية ليرقى بها بأسلوبه الرشيق الى مستوى رفيع ، وكان سلاحه ايضا العقل ليهدم

جمود التعاليم الدينية والطقوس ، وليحرر ضمير الفرد ، فقد اصبح الخلاص فرديا وليس منحة من الكنيسة .

وما ان هَلَّ القرن الثامن عشر حتى جاءت حركة الاصلاح الديني اليهودية على يد موسى مندلســون (١٧٢٩–١٧٨٦) امتدادا مباشرا لحركة الاصلاح الديني اللوثرية .

وقد احدث مندلسون بفكره وفلسفته التنويرية نفس الشرخ في تراث الحاخامية الجامد وسلطانها المهيمن ، الذي شقه لوثر من قبل في مواجهة الكنيسة وسلطانها الزمني والطقسي،

وانصبت جهوده على محاولة الملاءمة بين عقيدة الاجداد ومفاهيم التنوير ، وتطهير الدين اليهودي ، من محتواه العرقي مع التأكيد على الجوهر الاخلاقي الانساني للعقيدة الموسوية .

ففي رأي مندلسون ان لليهود شريعة الهية اوحى بها الى موسى ، وهي ترمي الى تحقيق السعادة في الدنيا والاخرة ، ومع ذلك فالحقائق والمبادئ العامة لم يكن الوحي فيها من نصيب اليهود وحدهم ، بل للبشرية كافة .

إن تركيز مندلسون على الجانب الاخلاقي في اليهودية واعتبار السلوك البشري جوهر الدين ، هو انعكاس مباشر لفلسفة التنوير الليبرالية البرجوازية ، التي تجعل من الفرد واخلاقه محور القيم .

كان مندلسون المعبر القوي عن روح عصره ، عصر صعود القوميات وتوحيدها ، واستقلالها، ومن ثم كان الداعية القوي لاندماج اليهود وذوبانهم في اوطانهم الجديدة ، فهو يخاطب مواطنيه من اليهود فيقول : ايها اليهودي تقبل دستور دولتك ، واعمل بجميع عادات بلدك ، وبقوانينها ، ولكن كن في نفس الوقت امينا على دين آبائك واجدادك . كما كان مندلسون يتبنى علمانية عصره ، ويعتبر الدين مسألة شخصية ، مسألة ضمير وعقيدة لا دخل للدولة فيها ، وقد تصدر الدعوة لاعطاء اليهود حقوق المواطنة كاملة ، فهم مواطنون مثل غيرهم ، اما الاديان فــ لله ، لا دخل للدولة فيها او في ممارستها .

هذا الفكر الاصلاحي التنويري هدم من الاساس المفهوم العبراني العرقي التراثي ، الذي يوحد بين العرق والعقيدة اليهودية ، ويعتبر اسرائيل شعب الله المختار الذي يحركه أمل العودة الى صهيون.

الهسكالا (١٧٥٠-١٨٨٠)

حركة التنوير اليهودي في بلدان شرق اوروبا اخذت اسم "الهسكالا" وتعني في الاصل "الحكمة" او "الفهم" ، وهي تستخدم في لغة اليدشْ بمعنى "التنوير" او "تثقيف العقل" او "الليبرالية" واصبحت المهمة الرئيسية للحركة في الشرق الاوروبي عبور العزلة التقليدية لليهود في شعوبهم واوطانهم ، مع الاخذ بمبادئ الاصلاح الديني في العبادات والممارسات، اما الشريعة فهي في نظرهم نتاج عصرها

وزمانها ، تخضع للتغيير ومقتضيات الزمن . فالكثير من القوانين والتشريعات التي وردت في التوراة حول تنظيم شؤون الحياة المدنية لم تعد صالحة.

وقد تصدت القوى المحافظة والرجعية المتخلفة في المجتمعات اليهودية المنغلقة لهذا التيار التنويري الليبرالي منذ البداية ، ورأوا في الهسكالا انحلالا لليهودية . وبرغم ذلك ظلت الغلبة الطاغية في غرب اوروبا وشرقها لتيار التنوير والهسكالا طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عصر نهوض القوميات والدول القومية ، وطغت موجة الاندماج والذوبان بين اليهود في اوطانهم لتحاصر تيارات العزلة والمحافظة السلفية ، وترجمت الصلوات وكانت تتلى باللغات الوطنية ، واستبعد منها حلم العودة الى صهيون .

واذا كان خط تقسيم الحياة ، والحد الفاصل بين حياة العزلة في الجيتو ، والصفحة الجديدة في تاريخ اليهود ، يؤرخ له عادة بالثورة الفرنسية ، وقرار الجمعية الوطنية الفرنسية في ١٧٩١/٩/١٧ استنادا الى وثيقة حقوق الانسان التي اعلنتها الثورة ، باعتبار اليهود المقيمين في فرنسا مواطنين لهم حقوق المواطنة كاملة ، وعليهم كل واجباتها فلم يعد لهذا التاريخ من معنى سوى دلالة الرمز ، وتسجيل للواقع الاندماجي الذي غطى مرحلة بكاملها في التاريخ الاوروبي .

ويؤكد آرثر هرتزبرج ، وهو المؤرخ للفكر الصهيوني ، ان الغلبة والسيادة في الفكر اليهودي حتى منتصف القرن التاسع عشر ، كانت لتيار الاصلاح الديني والاندماج . كما يقرر نفس المؤرخ الصهيوني ان البرجوازية اليهودية بالذات والطبقات العليا كانت اشدها اندماجا بعد ان تغلبت على منازعاتها مع البرجوازيات المسيحية المحلية في طور النشأة . واندمج الطرفان في معركة واحدة من اجل توحيد السوق الوطنية ، وبناء صرح اممهم وقومياتهم ، الامر الذي يثبت فساد القول بان الصهيونية كانت تعبيرا عن حركة الطبقة الوسطى اليهودية التي تسعى الى الانفراد بسوقها الوطني !! في فلسطين .

وكذلك كان حال الانتلجنسيا اليهودية التي اخذت بثقافة الغرب ، فقد كانت اندماجية شاركت بقوة في الثورات الديمقراطية الليبرالية في بلدانها .

وقد ساد الاعتقاد بين المثقفين ان اليهودية الجديدة التي تخلصت من غيبيات القرون الوسطى، هي خطوة متوسطة في الطريق الى المسيحية المستنيرة . فقد توقفت هذه الامة عن الوجود في نظرهم ، من الفي عام ، ومحاولة بعثها ، هي من قبيل اخراج الميت من القبر .

وكان "جبرائيل ريزر" وهو من اقوى دعاة التحرر في المانيا في منتصف القرن التاسع عشر يقول : "ان من يعترض على حقي في وطني المانيا ، يصادر على افكاري وآرائي وعواطفي ، وعلى حقي في لغتي التي انطق بها ، والهواء الذي اتنفسه ، بل هو يحرمني من حق الحياة ذاتها . فمن حقي ان ادافع عن نفسي ، وان اواجه ، واتصدى له كما اتصدى لقاتل".

ويلخص "ريزر" فلسفته في الوحدة الصوفية بين اليهودية والمانيا شعرا : "انا اب في السموات وام .. امنا هنا على الارض المانيا" .

وفي انجلترا طرأ تغيير ملحوظ ، في سمة الشخصية اليهودية الطيبة محل الشخصية اليهودية التقليدية الشريرة، فالاندماج والذوبان في بوتقة الامم خلال مرحلة صعود الحركات القومية ، وحركات البعث والتوحيد القومي ، لم يكن يعني في شئ طمس الثقافات والتراثات الشعبية المتعددة المنابع ، كان غنى الحاضر يعني التنوع والتعدد من مختلف الينابيع والاصول .. كان العقل هو الحكم .. والليبرالية في الفكر تحرك الجميع .

الحقيقة الاساسية التي تتأكد من وراء هذا العرض التاريخي السريع ، هو فساد الزعم الصهيوني ، بان الصهيونية تنتمي الى عصر القومية والبعث القومي في القرن التاسع عشر ، وانها حركة بعث وانبعاث قومي شأنها شأن غيرها من القوميات . فحقائق التاريخ الدامغة تثبت النقيض تماما .

فتصور النهوض والبعث القومي وتشكيل الامم وقيام دولها الوطنية في اوروبا ، كان تعبيره الطاغي بين اليهود سواء في صفوف البرجوازية اليهودية او الجموع الشعبية هو الاندماج والذوبان في شعوبهم واممهم والانتماء الى اوطانهم التي عاشوا بين ظهرانيها ، شأنهم في ذلك شأن سائر الاديان والملل والطوائف والفئات التي كانت تندمج وتذوب في الوحدة الوطنية المقدسة . كانت نزعات الوحدة والاندماج والذوبان هي التيار الطاغي الذي يضم الجميع على أنقاض التفتت الطائفي والتجزئة الاقطاعية .

فلم يكن رد الفعل اليهودي على هدم اسوار الجيتو هو التشكيل القومي المستقل ، او الهوية المتمايزة ، بل العكس الاندماج والذوبان ، كثقافات وفئات وديانات داخل اطار الوحدة القومية الواحدة .

وكان الانخراط في صفوف الحركة الثورية الليبرالية ، التي تطالب بالحقوق المدنية والحرية والمساواة من الجميع هو التعبير السياسي والفكري لهذا البعث والوحدة ..

كانت الوطنية تعني التحرير بالنسبة لليهود ، ونهاية عصور الظلام والاضطهاد ، والانتماء الوطني يعني التلاشي –لا الانبعاث– للاحاسيس السلالية والعرقية والطائفية الموروثة عن الاقطاع .

ولا زالت الحركة الصهيونية حتى يومنا لا يؤرقها شئ قدر هذه الحقيقة ، فعدوها الاكبر لا يزال هو الاندماج والذوبان بالنسبة لليهود في اوطانهم ، وجهدها السياسي والاعلامي الراهن لا يزال يركز كل التركيز على تأكيد الانفصال اليهودي والعزلة والانتماء للجيتو اليهودي الكبير في اسرائيل .

يبقى السؤال : اذا كانت عصور البعث والنهوض القومي ، وتشكيل الامم في التاريخ الاوروبي الحديث لم تعرف الصهيونية .. بل عرفت نقيضها على وجه التحديد : الاندماج والذوبان في شعوبهم

وامممهم ، والانتماء لها بالهوية .. فلأية قومية اذن ، ولاي من تياراتها وحركاتها ينتمي هؤلاء الصهاينة والكيان والوجود الصهيوني وعن اية قومية يتحدثون ؟!

الحركة القومية ، حركة في التاريخ ، وليست خارج التاريخ ..فهي ليست وجودا مطلقا مجردا ، من طبيعة ثابتة ، بل وجودا وكيانا متحركا في التاريخ ، ومن خلال التاريخ .. تتقدم وتصعد بعض طبقاته او فئاته الطبقية ، ومعها مجموع امتها وشعبها ، ويرتد بعضها ويهبط إلى قاع التوحش والهمجية .. تتناقض وتتصارع المصالح والسياسات والايديولوجيات خلال حركتها ، وبعضها حاد بل ودموي .. هدفه الثورة والتقدم او الردة والثورة المضادة ..

فلأي تيار من تيارات الحركة القومية الاوروبية تنتمي الصهيونية ، وفي أي تاريخ ولدت ، وفي أي ظروف تاريخية ، وفي رحم أي الطبقات تخلقت وخرجت الى الوجود ؟ هل هي الطبقات التي صنعت الثورات الديمقراطية والتقدمية وتحركت وراء اعلامها ، ام تلك التي افرزت الايديولوجيات الشوفينية والعرقية حتى انتهت الى اقامة نظمها الفاشية ؟..

ذلك يتطلب منا اطلالة تاريخية ... فمع هزيمة نابليون اسدل الستار على الفصل الاول من المعركة بين قوى الثورة والرجعية المتربصة ، وفي اكتوبر ١٨١٤ افتتح في فيينا مؤتمرها الاشهر بزعامة قطب الرجعية "مترنخ" (عراب كيسنجر) وفي ١٨١٥ وقع القياصرة والاباطرة والملوك وثيقة "الحلف المقدس" ومعهم الكنيسة في مواجهة "الغواية الثورية" والهرطقة الثورية" واصدرت المحاكم الاستثنائية (١٠٠.٠٠٠) حكما بالموت ، وفي ١٨٢٥ صدر قانون بتعويض المهاجرين القدامى ، كما صدر قانون انتهاك الحرمات او التدنيس وشمل الارهاب والحكم المطلق كل اوروبا .

كان هدف الحلف المقدس محو كل اثر للثورة الفرنسية ، ولكن كان من المستحيل وقف التحولات الاقتصادية العميقة على امتداد الساحة الاوروبية ، فقد نمت الرأسمالية بسرعة فائقة بعد الثورة الصناعية منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر . وكان من اثر نموها السريع في القرن التاسع عشر نمو المدن الكبرى في اوروبا وامريكا ، ومع تركيز الصناعة تجمعت جماهير العمال واستقطبت طبقتين واضحتي المعالم : البرجوازية والبروليتاريا .

وزادت خشية البرجوازية التي نمت وتضخمت من عدوها الجديد الطبقة العاملة ، وقد انعكس ذلك بوضوح في مواقف البرجوازية الليبرالية المترددة في ثورات ١٨٣٠ .

ثورات (١٨٤٨-١٨٤٩) هزيمة القرن التاسع عشر :

يقدم ماركس بأسلوبه الادبي الرفيع لوحة رائعة للاحداث التي مهدت لثورات ١٨٤٨ الديمقراطية ، التي بدأت بفرنسا ، لتعم القارة من غربها الى شرقها ، وانتهت بالهزيمة الساحقة .

وبهزيمة ثورات ١٨٤٨ يحدث التحول العظيم ما بين النصف الاول للقرن التاسع عشر ونصفه الاخير ، بين الثورة الوطنية الديمقراطية وقواها الليبرالية الصاعدة ، ثم الهزيمة فالردة والانتكاسة ، ويسود القارة ظلام كثيف ، تتصاعد معه تيارات العرقية والعنصرية ، **وفي خاتمة القرن (١٩) تبرز**

الامبريالية ، التي تجعل من العنصرية والصهيونية حتى الفاشية في اوائل القرن العشرين ادواتها الرئيسية .

يصور لنا ماركس هذه الاحداث والتحولات الحاسمة يقول : عندما قاد "لافيت" رجل البنوك الليبرالي ، بعد ثورة ١٨٣٠ عربة دوق اورليانز (الملك لويس فيليب) ظافرا الى مقر بلدية باريس قال كلمته الشهيرة : "منذ الان فصاعدا سيحكم اصحاب البنوك" .

وبعد ان استولت برجوازية المال النهمة على مقاليد السلطة بعد ثورات ١٨٣٠ الديمقراطية المحبطة ، عم السخط كل اوروبا ، وانفجرت الثورات من جديد على امتداد القارة في ١٨٤٨ وكان لها هزة ودوي عظيم .

في ٢٢–٢٤ فبراير انفجرت الثــورة في فرنسا ونزلت الطبقة العاملة الى الشوارع وهرب "لويس فيليب" .

وفي ٢٢ يونيو وقعت المعركة الفاصلة في باريس ، بين الطبقة العاملة والبرجوازية المتآمرة .. واعطت الحكومة سلطات استثنائية للجنرال "كافينياك" جزار شعب الجزائر ، واثبت الرجل هذه المرة انه ليس اقل وحشية ازاء عمال باريس ، اكتسحت قواته المتاريس ، وتركت مئات القتلى على ارصفة الشوارع ، واعدمت (١١٠٠٠٠) عامل دون محاكمات .. بعدها لم يعد يهدد سلطة الاغنياء شئ .

وكانت هزيمة يونيو ١٨٤٨ في فرنسا هي الكارثة ، فقد فتحت الابواب لسحق الثورة في كل اوروبا : سحقت في المانيا ثم براغ ثم فيينا ، ولاقت ثورات بلجيكا واسبانيا وسويسرا نفس المصير.

وبهزيمة ثورة ١٨٤٨ الديمقراطية هوت الآمال الكبار التي راودت الديمقراطيين والثوريين ، وهوى معها الكثيرون الى قاع اليأس ، وجسدت بأبعادها الاجتماعية والطبقية والسياسية والفكرية الحد الفاصل بين الثورة والثورة المضادة .

هزيمة العقل والديمقراطية :

كان للعقل السيادة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وكان هو المحرك للثورة وللثوريين. كان الايمان بالعلم وبالمستقبل ، وبمثل الديمقراطية في الحرية والاخاء راسخا . كانت الرأسمالية تنمو والبرجوازية تصعد ، وآفاق المستقبل تتداح امامها بلا حدود ، ويتجمع وراء رايتها كل الشعب .

ولكنها بعد ان قادت عددا من الثورات المظفرة ، وامسكت بزمام السلطة في معظم البلدان ، او شاركت فيها بنصيب وافر ، جلبت معها الاستغلال البشع والشقاء المقيم .. المزيد من الفقر والافقار للطبقات العاملة والفلاحين ، كما سحقت الازمات المبكرة اقساما عريضة من الحرفيين والتجار والبرجوازية الصغيرة ، فكان الشك الذي انعكس واضحا في الفلسفة ، كما بدأ نقد العقل . وصعد تيار الرومانسية الرجعية.

ولكن اذا اضحت المشاعر الملتهبة لا العقل ، والماضي الغابر هو معيار الحقيقة ، فمن السهل ان تنقلب الامور ، وينتقل السلاح من يد الثوريين الى ايدي الثورة المضادة . وتصبح التقاليد الموروثة ، والمشاعر الدينية المشدودة بحبال الماضي ، والسلف الصالح ، والازمان السعيدة الغابرة هي الموئل والملاذ . **وهذا ما حدث في مرحلة الردة ، في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ، بعد الهزائم المروعة التي لحقت بالثورة . فالقوى التي كان العقل قد ألزمها جحورها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، اخذ صوتها يرتفع ويشتد من جديد ، واصبح لتيارات اللاعقلانية الغلبة بالتدريج بعد هزيمة الثورات الديمقراطية .**

في هذه الاجواء المشحونة بالحنين المشبوب للماضي ، مما اشاعه الرومانسيون الرجعيون ، وبدلا من محاولات الدين التأقلم مع عصر العقل والعلم ، **نشهد في هذه المرحلة المتأخرة تراجعا عن المذاهب البروتستنتية الاصلاحية اللوثرية والكالفينية ، وأحياءاً دينيا عماده العاطفة والقلب كطريق للخلاص ، ومعاداة صريحة للعقل ، والعلم ، وبخاصة ضد افكار دارون .**

وكانت ممارسة الطقوس والتركيز على الترتيل والانشاد الديني والوعظ لاشعال العواطف من سمات هذه المذاهب ، **مما اسهم في اذكاء اجواء الغيبية واحلام الخلاص بالعودة الى الماضي ... وفي هذا المناخ برز شعار :**

<u>أمل الخلاص اليهودي</u>

لم يختلف وضع اليهود واليهودية كدين وعقيدة ، في هذا المناخ الفكري ، مناخ الردة الفكرية والاجتماعية والسياسية ، وكما جاءت حركة الاصلاح الديني في اليهودية ، في عصر العقل والتنوير امتدادا للاصلاح الديني المسيحي ، كذلك بعث امل الخلاص اليهودي (كمفهوم رجعي) من جديد في هذه الفترة .

ففي اجواء الاحياء الديني ، في هذا العصر المشحون بالمعاناة والاحباطات برزت دعوات جديدة قديمة في اطار ما اصطلح على تسميته "بالصهيونية الدينية" قبل ان تظهر الى الوجود "الصهيونية السياسية" وكانت بلا شك تمهيدا ومدخلا لها . وكما انتشرت "دكاكين التوبة" و "جيش الخلاص" بين الجماهير المطحونة ، ترددت نفس الدعاوى بين اليهود بأمل "الخلاص اليهودي" وذلك بالعودة الى تراث التلمودية والقبالة الصوفى ، ومعها دعوات العودة الى الماضي الغابر ، الى أورشليم من جديد!!.

وفي هذه الفترة بالذات ارتفع صوت الحاخام "يهودا القالى" (١٧٩٨–١٨٧٨) حاخام عاصمة المغرب يدعو الى خلاص اليهود بالعودة الى التلمود واساطير القبالة ، ونشر كراسته "اسمعي يا اسرائيل" عام ١٨٣٤ بعد فشل ثورات ١٨٣٠ الديمقراطية ، واقترح فيها اقامة مستعمرات يهودية في فلسطين لكي تكون مقدمة ضرورية "للخلاص المنتظر"، ويتم الخلاص الذاتي بالدعوة الى عقد جمعية عامة كبرى وقيام صندوق قومي لشراء الاراضي ، وهي الافكار التي تبناها هرتزل فيما بعد ، وكذلك

نشر كتابه "الخلاص الثالث" وفسر الخلاص الجديد على اساس الاستيطان في فلسطين بقصد تعمير الارض الخراب واعتبر "العودة الجماعية" بمثابة الخلاص الذي وعد به جميع الانبياء .

وبالرغم من ان هذه الآراء جاءت بعد هزيمة نابليون وسيطرة الحلف المقدس، فإنها لم تلق اذانا صاغية ، وكان مآلها الرفض من جانب الجمهرة الغالبة من اليهود ، لان زخم التيار الاندماجي كان هو الاقوى .

ومن ابرز ممثلي تيار الردة الديني ، في عصر الردة الشامل بعد منتصف القرن (١٩) –الحاخام "زفى هيرس كاليشر" (١٧٩٥–١٨٧٤) في بولندا . وقد واجه بعناد حركة الاصلاح الديني اليهودي ، وظهر كتابه "السعي لصهيون" عام ١٨٦٢ وقد اعتبر عذابات اليهود وشقاءهم بمثابة امتحان لايمانهم ، وبداية لحلول الخلاص بالتطوع للذهاب الى فلسطين بقصد الاستيطان ، وشراء الاراضي ، مما حمل جماعة من اليهود على شراء ارض في ضواحي يافا عام ١٨٦٦ حيث قامت جمعية الاليانس الاسرائيلية التي تأسست في فرنسا ١٨٦٠ بإنشاء المدرسة الزراعية لتشجيع شراء الاراضي.

القومية الرجعية والعرقية الصهيونية :

في اللحظات التاريخية الحاسمة ، وبالاخص في لحظات الهزائم والفواجع الكبرى ، من قبيل هزيمة ثورات ١٨٤٨ ، يحدث عادة وكظاهرة تكاد تكون عامة في التاريخ ، اهتزاز مقابل وشديد في الفكر والعقيدة والقيم ، وصور بالغة الغرابة من البلبلة والخلط ، والبحث عن مخرج ، أي مخرج، ومهرب بأي وسيلة ، غير العقل ، غيبية او وهمية حتى الاستعانة بالسحر ، واشد اشكال التدين والعبادات تخلفا وسذاجة وجمودا . كما يسقط في نفس اللحظة مفكرون وقادة وساسة كبار في مهاوي اليأس والهزيمة والردة .

وسنشهد نموذجا تاريخيا بارزا لهذه الظواهر في السياق الذي نعالجه ، في سقوط الداعية والرائد الشيوعي ، ورفيق ماركس وانجلز وهو "موسى هس" الذي تحول وارتد فجأة بعد هزيمة ثورة ١٨٤٨ وبعد هربه والحكم عليه بالاعدام ، من الشيوعية والاممية البروليتارية الى مهاوى العرقية والظلامية ، حتى اصبح الداعية الاول في تاريخ الفكر الصهيوني .

فبعد هزيمة ثورات ١٨٤٨ استطاعت الرجعية والقوى المحافظة التي سيطرت على مقاليد السلطة ان تستغل اجواء الرومانسية (الرجعية) هذه المشحونة بروح الحنين الى الماضي ، وبعث التراث والاساطير والموسيقى والاغاني الشعبية ، استغلت هذا كله لتضخم من مثال الوطنية والقومية الى حد التعصب القومي والشوفينية العرقية ، والاهم انها استطاعت ان تعزل ما بين الوطنية والحريات الليبرالية وقدمت شعارات الوحدة القومية لتمثل مركز الاهتمام الاول على حساب الحريات الليبرالية الديمقراطية .

وكان نموذج هذا الصنف من القادة والساسة الرجعيين الذين لعبوا على هذا الوتر الحساس "**بسمارك**" في المانيا ، للاهمية التي كان يحتلها امل الوحدة الالمانية في قلوب الشعب الالماني في ذلك الحين . فقد استدعي "بسمارك" لتولي الوزارة ١٨٦١ لمواجهة موجه جديدة متعاظمة من الحركة الليبرالية والراديكالية العمالية، فحاول منذ البداية عزل الاغلبية الليبرالية في البرلمان عن الاتجاهات الراديكالية ، وخاطبهم بقولته الشهيرة وهو يتحدث عن الوحدة القومية : "**ألمانيا لا تتطلع الى ليبرالية بروسيا ، بل الى قوتها ، لان المسائل الكبرى في العصر لا يتقرر مصيرها بالخطب وقرارات الاغلبية ، فهذه اخطاء ١٨٤٨ و ١٨٤٩ ، بل بالدم والحديد**" ..

في ظل هذه الصراعات الاجتماعية المحتدمة ، والازمات المشتدة ، والتي كانت تطحن الطبقات الوسطى الصغيرة بوجه الخصوص ، ومن بينها اعداد كبيرة من اليهود ، وتصاعد موجات العرقية والعداء للسامية بتشجيع من البرجوازيات الرجعية الكاملة ، لم يكن غريبا ان تتحول فئات متزايدة الاتساع عن مثلها واهدافها الثورية ، لتسقط في مهاوى العدمية واليأس المطلق ، وهي عادة تجد الملجأ والامان في احلام الرومانسية السلفية ، او في احضان الكنيسة الرجعية ونزعات التصوف ، وقد تنشد السلام المفقود في بلاد بعيدة من الارض البكر لا يقطنها انس ولا يعكر صفوها توتر او صراع .

وقد تتخفى نفس المفاهيم ، وراء غلالة رومانسية رجعية ، بدعاوى السلام الاجتماعي ، والتآخي والمحبة والتعاون ، لاقامة صرح نظام اجتماعي جديد ، ولو على حساب قهر شعب آخر وابادته وهي المفاهيم التي حركت الرواد الاوائل الصهاينة الذين استوطنوا فلسطين .

رائد الصهيونية العنصرية : موسى "هس" (١٨١١–١٨٧٥) الاشتراكي الالماني يتحول الى العرقية

رائد الصهيونية العرقية الاول "موسى هس" الذي كتب كتابه الاشهر "روما والقدس" عام ١٨٦٢ ليقدم اول وثيقة فكرية سياسية تعد دستورا للمشروع الصهيوني المقبل ، وقد اعترف هرتزل نفسه ، مؤسس وقائد "الصهيونية السياسية" ان ليس في كتابه "الدولة اليهودية" ، ما يخرج عن الافكار التي سبقه اليها "هس" .

بدأ حياته ثوريا بارزا واشتراكيا رائدا ، وبعد الهزيمة الفاجعة (١٨٤٨) حدث ذلك الانقلاب الشامل في فكره وحياته ليتحول الى العرقية الصهيونية ، وليخط اول معالم هذا الطريق اللاعقلاني الظلامي ، والذي قاد الى المشروع الصهيوني في اخريات القرن وبروز "الصهيونية السياسية" على يد "هرتزل" ، كأحد التيارات العرقية التي ركبتها الامبريالية في تنفيذ اهدافها الاستعمارية ، والهيمنة على هذه المنطقة الحساسة والقابضة على اهم طرق التجارة العالمية .وموسى "هس" يقدم لكتابه

"روما والقدس" بالاعتذار "لشعبه" اليهودي ، ويتقدم اليه باكيا نادما على سنوات عمره التي قضاها مع البروليتاريا ، واضاعها في الثورة العالمية ، بعيدا عن شعبه ، غريبا عن عشيرته .وعندما قدم "هس" مخطوط كتابه لناشره ، رده له حتى قبل ان يتم قراءته ، رافضا ان ينشر كتابا يحمل مثل هذه الافكار، فقد كان تيار الاندماج والذوبان لا يزال هو الغالب الكاسح رغم الردة الشاملة في كل انحاء القارة . وخلال عام كامل لم يجد ناشرا يقبل نشره او طرحه على جمهور اليهود . واخيرا لم يجد الكتاب سبيله للنشر الا بمعونة مباشرة من المؤرخ اليهودي المتعصب ، والعدو العنيد للاندماج "هنريش جراتز" ومع ذلك لم يستطع الموزع ان يبيع منه اكثر من (١٦٠) نسخة خلال عام كامل من بين (١٥٠٠) نسخة وهو العدد المطبوع .

وقد صادف الكتاب رفضا تاما من جانب الاشتراكيين والليبراليين ، ورأت فيه الغالبية عملا ضارا لانه يعتبر اليهود اجانب وغرباء عن الشعب الالماني ، ويقدم للمعادين للسامية خدمة كبيرة .

وكان الحاخام "ابراهام جايجر" الاصلاحي الكبير يتحدث عن "هس" باحتقار ، وعلى حد قوله : "بعد ان فشل في الاشتراكية ، وفي كل انواع الغش والاحتيال ، يريد ان يلفت الانظار بالدعوة القومية".

ولكن المأساة أن "هس" كان ابن عصره ، فقد دخلت الرومانسية الرجعية الحلبة في تلك الفترة تحت شعارات الدم والأرض، مع تيارات القومية الشوفينية والعرقية ، وارتفع صوت من يتحدثون، عن السمات العضوية للروح القومية ، التي تنمو من خلال العملية البطيئة لتاريخ الشعوب وأصبحت الشعوب كائنات عضوية هائلة وحية، تتطور وفق سماتها العرقية الخاصة، وبفعل قواها وقوانينها الداخلية، لها تاريخها ومصائرها ورسالاتها.

وكانت الفكرة المحورية في حركة " العاصفة والتوتر" الرومانسية الألمانية ، هي فكرة العبقرية والأصالة ، وأصبح البحث عن عبقرية الأمة ورسالتها ، والعوامل التي تتضافر في إنماء هذه العبقرية يأتي في مقدمتها العرق والدم والسمات المتفردة لكل كائن حي.

هذه المذاهب والتفسيرات الحيوية والعضوية لحركة التاريخ تقع في جذر القومية الشوفينية والعرقية ، وتجعل من القوى اللاواعية، واللاعقلانية المحرك للتاريخ . وفي ١٨٥٣ نشرت العنصرية الحديثة كتاب "جوبيتو" "مقال عن عدم المساواة بين الأجناس البشرية" ، كما برز مفهوم "الجامعة الجرمانية" في السياسة وكان "هس" من أوائل من أخذ هذه المذاهب الجديدة مأخذ الجد ،وقد عبر عن ذلك في مقاله الشهير "جوهر المال" وقد كتبه ١٨٤٣ (قبل ارتداده عن الاشتراكية وتحوله إلى الفكر الصهيوني).

فالمال عند "هس"، بالنسبة لعالم الواقع ، بمثابة الله في عالم النظر، وهو يشكل استلاباً لفكرة القيمة الاجتماعية ، فالمال ليس سوى الرمز لإنتاجنا الاجتماعي الواقعي ولكنه أفلت من سيطرتنا العقلية، ومن ثم فهو يحكمنا ويسودنا ، فالإنسان في رأيه مفصول نظرياً عن جوهره الاجتماعي

بالدين، وعملياً بقوة المال الذي يستعبد البشر. فكل القيم يعبر عنها بقيمة المال، والنتيجة هي عبودية للبشر أشد نكاية مما كانت عليه في القديم. وقد ساعد على هذا الاستلاب الديني المسيحية ، ولكن اليهودية في نظره هي التي تمثل أسوأ شرور المجتمع البرجوازي لأن الرمز فيها هو المال !!

وعند "هس" "المسيحية هي نظرية الأنانية ومنطقها" " وجوهر العالم الحديث، المال، هو الجوهر المحقق للمسيحية" ولبابها هو اليهودي الذي وظيفته تنمية الحيوان الذي يعيش على القنص بداخل الإنسان، وهي الوظيفة التي أداها على خير وجه!!

وبعد ارتداده، تحول "موسى هس" إلى مجرد انتهازي منافق بعد أن تخلى عن كل الأفكار العلمانية والتنويرية، فقد حمل "هس" الهزيمة بداخله، حتى قبل هزيمة الثورة ١٨٤٨، نشر كتابه "روما والقدس" الذي بوأه بجدارة ريادة الصهيونية الحديثة، ويمكن ان يعد بحق "ما نفستو العرقية والهوس الديني" ، وهو يهدي كتابه "إلى الرواد البواسل من كل الشعوب الذين يناضلون من أجل البعث القومي". فالاندماج كما يقول المرتد "هس" (طعم) و (فخ) يسقط فيه اليهودي ، فلا التحرر ، ولا حتى التعميد، واعتناق المسيحية ، لاشيء ينجيهم من العداء للسامية ، طالما أن إصلاح الأنف اليهودي مستحيل ، فالعرق اليهودي عرق نقي ، وهو الذي يولد صفاته ، ويتحول التاريخ عند "هس" المهزوم إلى صراع بين الأجناس والأعراق، حيث شن حملة شعواء على الإصلاحيين الذين ينكرون الدلالة القومية للدين اليهودي، ويحاولون فصل السياسة عن الدين في اليهودية.

وانتهى "هس" إلى النتيجة الطبيعية للقومية الشوفينية العرقية ، فالعصر هو عصر التوسع الكولونيالي، وحركات الاستعمار الاستيطاني ، وقد ارتبط "هس" ارتباطاً مباشراً وصريحاً بالمشاريع الكولونيالية لذلك الحين : فقد ظهر كتابان قبل كتاب "هس" بقليل "المسألة الشرقية الجديدة " لارنست لاهاران (١٨٦٠) وكتاب "باريس روما القدس ؛ أو المسألة الدينية في القرن التاسع عشر" لجوزيف سالفادور (١٨٦٠) وكلاهما يدعو للبعث القومي اليهودي في إطار مشاريعهما الكولونيالية في الشرق الأوسط . وكان "هس" يردد أفكار "لاهاران" بوجه خاص وهو السكرتير الخاص لملك فرنسا الرجعي الأفاق نابليون الثالث، ويدعو إلى الاستيطان في فلسطين وإنشاء مستعمرات يهودية مسلحة والتحالف مع فرنسا لأجل هذا الغرض.

كومونة باريس : شبح الشيوعية المتجسد ونذر الفاشية

ظل شبح الثورة مطاردا هائما في اوروبا طوال سنوات الردة والثورة المضادة السوداء منذ ١٨٤٨ حتى تجسد ذات صباح في لحم ودم (١٨٧١) في كومونة باريس ، التي اطاحت بالفعل بسلطة البرجوازية ، واقامت لاول مرة في تاريخ البشرية ولو في عمرها القصير (٧٢ يوما) سلطة الطبقة العاملة (١٥ مارس–٢٨ مايو ١٨٧١) .

لقد اثار قيامها وانجازاتها وبطولاتها الفذة الرعدة والفزع في كل اوروبا حتى اقصى ليبراليتها . وسنشهد ردة الفعل الرجعية المسعورة ، في تيارات العرقية والعنصرية والعداء للسامية التي بدأت تغزو القارة بقوة . عندما اسفر فكر الفاشية الصريح عن نفسه في فلسفات نيتشه وشبنجلر والصهيونية العرقية على حد سواء . لقد ألقت البرجوازيات الاوروبية نهائيا بأعلامها القديمة الليبرالية ، لترفع شعارات العرق والدم والحديد .. أعلام الامبريالية وألويتها الجديدة .

ويفتضح الجذر المشترك للعداء للسامية والصهيونية في نفس الان ، في لمحة سريعة للظروف الاقتصادية والسياسية في أخريات القرن الماضي ، فكلها تنويعات وتوزيعات لنغم واحد ، هو تيار القومية الشوفينية الرجعية ومكونه الاساسي في العرقية والعنصرية .

ففي الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، ووسط الازمة الاقتصادية لاعوام (١٨٧٠–١٨٨٠) وخراب البرجوازية الصغيرة صعدت موجة العداء للسامية ، تدعمها أسطورة مسئولية اليهود عن حالة عدم الاستقرار الاقتصادي والسياسي وكانت دوائر الرأسمالية الكبيرة الرجعية حريصة على صرف معارضة البرجوازية الصغيرة إلى العداء للسامية المصحوبة بالديماجوجية الاجتماعية واصبح لموجة العداء للسامية قوة خاصة في ألمانيا والإمبراطورية النمسوية ، وقد عقد أول مؤتمر دولي للعداء للسامية في درسدن عام ١٨٨٢ . وفي روسيا كان العداء للسامية نظرية تتبناها الدولة في الاساس .

وفي سنوات ١٨٩٧–١٨٩٨ انفجرت قضية دريفوس ، والتي كان لها في الرأي العام الاوروبي وقع الزلزال . واصبحت نقطة الانطلاق لهرتزل في تأليف كتابه "الدولة اليهودية" كما هو معروف ثم انعقاد المؤتمر الصهيوني الاول في بال ١٨٩٧ .

ولكن هذه الاحداث غير بعيدة في الواقع عن حدث آخر هام في نفس الفترة وهو اجتماع الأممية الثانية في لندن ١٨٩٦ والارتباط بين الحدثين والتاريخين لا تخفى دلالته بالطبع ، واقترن اجتماع الأممية بصعود كبير في نشاط وقوة الحركة الاشتراكية العمالية ، باعتبارها قوة تطلب السلطة ، وبدا العصر كأنما هو عصر جديد لتحقيق الاشتراكية .

هذه الاحداث مجتمعة كانت مؤشرا هاما على اتجاه الريح ، في هذه المرحلة المضطربة في نهاية القرن التاسع عشر، تلك الريح التي ستتحول الى عواصف وحرائق مدمرة ، ستجتاح العالم منذ بداية القرن العشرين .

لقد كان صعود موجات تيارات العرقية والعداء للسامية ، وبروز الصهيونية في الجانب الاخر كحركة منظمة ، كلاهما وجهين لعملة واحدة ، في مواجهة الخطر الماثل .

في هذه المرحلة اسلمت البرجوازية الامبريالية قيادها بالكامل لاقصى اليمين العرقي في مختلف صوره وتجلياته المعادية للسامية والصهيونية معا ، وامتطت كلا التيارين في نفس الوقت لتحقيق اهداف التوسع والعدوان واعادة تقسيم العالم ، والهيمنة الشاملة على مقدرات الشعوب .

تاريخ يلخص حركة تيارين بل وقوميتين مختلفتين في الجوهر : تيار العقل والتقدم والديمقراطية التي بنت الشعوب والامم ووحدتها في عصور الثورة والتقدم ، وقومية اخرى تماما ، قومية الطبقات العدوانية المتوحشة التي قادت الى الانحدار والتمزق ، والعدوان وتمزيق الشعوب الاخرى وتقسيم الاسلاب فيما بينها .. تحتل الصهيونية بالذات في هذا التيار الاخير رأس الرمح في سحق حركة شعوبنا وتمزيقها وتجزئتها حتى الإبادة .

المسألة اليهودية والحل الصهيوني

كُتب الكثير عن الحركة الصهيونية منذ تسلمتها يد هرتزل، الصحفي النمساوي الذي كان له الفضل في تجميع خيوط العون الإمبريالي وغير الإمبريالي ووضعها جميعاً في خدمة الصهيونية، التي تحولت على يديه إلى حركة سياسية لها مؤسساتها التنظيمية والمالية والسياسية.

وقد كان من أكثر الأمور إثارة للالتباس حول الحركة الصهيونية، أنها تبلورت كحركة سياسية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو الوقت الذي بدأت تتبلور فيه كثير من الحركات القومية في أوروبا الشرقية بوجه خاص مثل دول البلقان الغربية ومثل ألمانيا وإيطاليا اللتين كانتا تقومان بمهمة التحرر القومي وتوحيد البلاد في الوقت نفسه، وكان هذا هو أساس اللبس أو التزوير التاريخي لنشأة الحركة الصهونية، المتمثل في تصديق الادعاء الصهيوني القائل بأن الحركة الصهيونية هي التي قادت ما يسمى بـ "حركة التحرر اليهودية" كانت حسب ذلك الإدعاء جزءاً من تلك الحركات القومية التي كانت تتبلور في تلك الفترة .

ولم يكن هذا التزوير بلا أساس على أي حال، فقد كانت البرجوازية اليهودية هي التي تقوم بالدور الأساسي في تمويل وتسيير الحركة الصهيونية وتوجيه قادتها، فبدت وكأنها تقوم هنا أيضاً بقيادة حركة قومية شبيهة بالحركات الأوربية التي قادتها تلك البرجوازيات.

كما كانت هناك بعض الأسباب الثانوية لذلك الخلط، مثل علاقة زعماء الحركة الصهيونية ببعض قادة حركات التحرر في العالم ، مثل علاقة هرتزل بغاريبالدي وعلاقة وايزمن بغاندي في مرحلة معينة .

لقد ساعدت كل هذه الأسباب وغيرها على حدوث ذلك اللبس حول ماهية الحركة الصهيونية، وهو لبس لا يزال له تأثير في بعض الأوساط اليسارية الأوروبية والأمريكية حتى الآن.

وبالطبع فإن من المهم التصدي لهذا الموضوع لإزالة هذا اللبس، فكل أوجه تشابه الحركة الصهيونية مع حركات التحرر تقوم على مستوى الشكل، لكنها تصل إلى نقاط افتراق كبيرة واختلاف جوهري عند تلك الحركات عند الغوص في العمق لاكتناه الحقيقة، **فالبرجوازية اليهودية الكبيرة هي التي دعمت ومولت الحركة الصهيونية، لكن ذلك لم يكن ضمن عملية تهدف إلى "تحرر اليهود" بقدر ما كان استثماراً من جانبها للمحنة التي تعرض لها هؤلاء في مشروع استيطاني، كان بدوره جزءاً من مجموعة مشاريع مماثلة في آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية. وقد قامت بتمويل هذه المشاريع باعتبارها جزءاً من البرجوازية الأوروبية مسيحية ويهودية ، كنوع من حل لأزمتها ، وليس بهدف "التحرر" . وقد لاحظ الدكتور عبد الوهاب المسيري، عن حق، أن الدعوات الصهيونية لإعادة اليهود إلى فلسطين كانت تتوجه على الدوام إلى كبار رجال المال والسياسة في الدول الأوروبية**

الاستعمارية. وكان نموذجياً ضمن هذا الإطار أن يتوجه "هرتزل" في دعوته الصهيونية إلى رجل المال الفرنسي اليهودي روتشيلد ، فجاء عنوان كتاب هرتزل الأساسي "الدولة اليهودية : نداء إلى عائلة روتشيلد".

أما ما يسمى باليسار الصهيوني الذي كانت تشوب بعض كتاباته رطانة ماركسية يسارية، فقد كان جزءاً أساسياً من الحركة الصهيونية بنفس ارتباطاتها البرجوازية .

وعندما ظهرت الحركة الصهيونية بصورتها في أواخر القرن التاسع عشر، كانت قد تحولت من حيث الجوهر إلى حركة سياسية متدثرة بغطاء ديني رقيق. لكن **الإيمان الديني لم يكن جوهرياً بالنسبة لقادة الحركة الصهيونية ومنظريها. وقد لخص "م.ا. جولدنبرج" الوضع المتداخل بين الحركة الصهيونية والدين اليهودي في تلك الفترة كما يلي : "بمقدار ما كانت الصهيونية توسع نفوذها وتصبح تدريجياً الأيديولوجيا السائدة للبرجوازية اليهودية كان الكهنوت اليهودي يعتبر ليس فقط مفيداً وإنما ضرورياً بشكل جذري".**

لقد جاءت استفادة الصهيونية من الأساطير الدينية اليهودية بنفس الأسلوب الذي عادت فيه البرجوازيات الأوروبية المسيحية إلى الاستفادة من المقولات التي كانت ترفضها سابقاً ، ومنها المقولات الدينية التي كانت قد شنت عليها هجمات عنيفة ، لكنها لم تعد ترى مانعاً في فترة لاحقة من العودة إليها في سبيل تنفيذ مآربها الاستعمارية كما هو الحال بالنسبة للتيارات اليمينية المتطرفة – حكومة بوش و المحافظين الجدد في الولايات المتحدة، وحكومة نتنياهو وليبرمان في "إسرائيل" – التي تتخذ من الدين غطاء لسياساتها . **وليس أدل على كل هذا الرياء الديني من أن معظم قادة الحركة الصهيونية لم يكونوا معروفين بتدينهم ، بل على العكس من ذلك، كان معظمهم من المتنورين المندمجين سابقاً، أو من "اليساريين" أو الليبراليين أمثال هرتزل وبنسكر وهس، بل إن بعضهم كان رافضا للدين اليهودي برمته، فتيودور هرتزل "تعمد انتهاك العديد من الشعائر الدينية اليهودية حين قام بزيارة المدينة المقدسة" و "كان ماكس نورداو ملحداً يجهر بإلحاده" وكان حاييم وإيزمن يتلذذ في بعض الأحيان "بمضايقة الحاخامات بشأن الطعام المباح شرعاً".**

وعلى أي حال فإن مساجلات لينين مع حزب البوند الروسي الذي كان يدعي تمثيل البروليتاريا اليهودية ، وكتاب ستالين الشهير " الماركسية والقضية القومية" يعتبران من كلاسيكيات الكتب التي تبين تهافت منطق الفكرة القائلة بوجود قومية يهودية تهدف الحركة الصهيونية إلى تحررها.

ومع ذلك فإن من الصعب القول إن الالتباس قد انتهى تماماً خاصة بعد قيام "إسرائيل" ، مما أضاف وهما جديداً حول "تحقق هدف الصهيونية" في إنشاء دولة مستقلة لليهود. لكن **قيام "إسرائيل" لم يكن تحقيقا لهدف تحرري ، بل جاء ترجمة عملية بشعة لهدف إمبريالي بحت في "إقامة قلعة محصنة للإمبريالية في المنطقة العربية" كما أخبرتنا وقائع التاريخ.**

وعلى الرغم من أن قيام "الدولة اليهودية" قد أدخل عنصراً جديداً أخل بمجمل المعادلات الأساسية في المنطقة إلا أنه لا يغير من جوهر الصهيونية، التي رأيناها تتطور من أفكار دينية غامضة برزت وانتشرت من تبلور الفكر البرجوازي الأوروبي ثم تحولت إلى فكر استغلالي استعماري، ثم إلى حركة سياسية غايتها الاستيطان في فلسطين ، لا من أجل تخليص اليهود من عذاباتهم ، بل من أجل أن تكون قلعة للإمبريالية تحول دون تهديد مصالحها في استغلال ثروات الشعوب العربية والإسهام في استمرار تبعية وتخلف بلدانها،واحتجاز تطورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي كضمانة وحيدة لحماية المصالح الإمبريالية ، عبر أنظمة عربية فقدت في معظمها وعيها الوطني والقومي بعد أن أقدمت على الاعتراف بمشروعية دولة العدو الإسرائيلي ، وأصبحت جزءاً من التحالف الإمبريالي المعادي لأهداف وتطلعات الشعوب العربية صوب الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية ، **وهنا بالضبط تتجلى بوضوح الرؤية الموضوعية الثورية للصراع مع العدو الصهيوني وحليفه الإمبريالي ، كصراع عربي من خلال الانطلاق مجدداً من ضرورة النضال القومي الذي يعني العلاقة الجدلية والعضوية بين القضية الفلسطينية والقضية القومية العربية، بمثل ما يعني وحدة البرنامج القومي، التحرري الديمقراطي، الهادف إلى تحقيق نهضة شعوبنا وتقدمها** ، الأمر الذي يفرض على كافة قوى اليسار القومي العربي عموماً والجبهة الشعبية على وجه الخصوص، التفكير جدياً في إعادة احياء الفكرة التوحيدية القومية المترابطة تاريخياً ومصيرياً بالمسألة الفلسطينية، وما يتطلبه ذلك من تفعيل عملية التغيير الوطني الديمقراطي في إطار تجديد المشروع النهضوي القومي المقاوم، شرط الانطلاق بداية من رؤية ثورية واقعية جديدة لحركة التحرر القومي باعتبارها ضرورة تاريخية تقتضيها تناقضات المجتمع العربي الحديث وضرورات تطوره المستقبلي.

مقتطفات من كتاب " اختراع الشعب اليهودي [١]"

تأليف : شلومو ساند [*]

البروفسور "**شلومو ساند**" ، استاذ التاريخ المعاصر في جامعة تل أبيب ، صدر كتابه باللغة العبرية عام ٢٠٠٨ وأدى إلى مناقشات عاصفة في إسرائيل وخارجها ، نظراً لكونه "أحد أكثر الكتب إثارة وتحديداً ، مما لم تألفه الأبحاث الإسرائيلية منذ فترة طويلة بشأن موضوعة الشعب اليهودي المشحونة".

يقول "شلومو ساند" في مقدمة الطبعة العربية لكتابه " على الرغم من أن مصطلح " شعب" فضفاض، وغير واضح جداً ، إلا أني لا أعتقد بأنه كان في أي زمن مضى شعب يهودي واحد مثلما لم يكن هناك شعب مسلم واحد. لقد كان هناك ولا يزال يهود ومسلمون في التاريخ، وتاريخهم غني، متنوع ومثير. اليهودية ، مثل المسيحية ، والإسلام، كانت على الدوام حضارة دينية مهمة وليست ثقافة – شعبية قومية "[٢].

أما الكاتب التقدمي "أنطوان شلحت" الذي كتب تقديم الطبعة العربية، فهو يؤكد على أن قراء الكتاب سيلاحظون أن المؤلف " شلومو ساند" يحاول ، على امتداد صفحات الكتاب كلها، أن يجيب بأناة الباحث وبتمحيص دقيق عن أسئلة متفرعة من السؤال الرئيس المتعلق بحيثيات ووقائع اختراع الشعب اليهودي، من قبيل ما يلي :

- متى وجد الشعب اليهودي، هل بالتزامن مع نزول التوراة في سيناء، أم مع احتلال أرض كنعان ، أم بجرة قلم بضعة مؤرخين يهود من القرن التاسع عشر تصدوا –في ظل تبلور الحركات القومية في أوروبا – لمهمة اختراع هذا الشعب .
- هل تم تهجير سكان "ملكوت يهودا" بالتزامن مع دمار الهيكل الثاني في سنة ٧٠ ميلادية، أم أن ذلك كان أسطورة مسيحية تسربت رويداً رويداً إلى الإرث اليهودي وجرى استنساخها بقوة داخل الفكرة الصهيونية ؟ وإذا لم يتم تهجير هؤلاء السكان فما الذي حل بمصيرهم ؟
- هل اليهود هم "شعب عرقي" ذو جينات خصوصية ؟ أم أن من المعقول الافتراض ، أكثر، بأن ما أجج الحديث عن "الجينات اليهودية" بيولوجياً هو انعدام ذاكرة شعبية واحدة أو تاريخ مشترك موثوق فيه، ويتحلى بالصدقية ويكون كافياً بصورة بليغة لإرساء دعائم هوية يهودية جمعية على المستوى القومي ؟.

---

[١] شلوموساند – اختراع الشعب اليهودي – ترجمة سعيد عياش – المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية – رام الله – ٢٠١٠.

[*] البروفسور "شلومو ساند ، استاذ التاريخ المعاصر في جامعة تل أبيب.

[٢] التغميق من قبل الدائرة الثقافية .

– ما الذي يختبئ وراء مصطلح "دولة الشعب اليهودي" ، ولماذا لم يتحول هذا الكيان، حتى الآن ، إلى " جمهورية إسرائيلية " .

ومع أن المؤلف يخلص ، في نهاية الكتاب، إلى استنتاج فحواه ضرورة الدفع قدماً بفكرة جعل إسرائيل "دولة جميع مواطنيها" ، في إطار " مقاربة الدولتين " حلاً مرغوباً للصراع عموماً ، إلا أن الاستنتاجات التي يتوصل إليها في معرض تفنيد أسطورة اختراع أو اختلاق الشعب اليهودي توسع دائرة الضوء كثيراً من حول أراجيف رواية الحركة الصهيونية، بشأن تلك الأسطورة من جهة ، وبشأن مشروع استعمار فلسطين وما ترتب عليه من آثار كارثية مدمرة بالنسبة لسكانها الفلسطينيين الأصليين ، من جهة أخرى موازية . وهو يؤكد ، في هذا الصدد، أن **الرواية التاريخية القائلة إن "الشعب اليهودي" قائم منذ نزول التوراة في سيناء، وأن الإسرائيليات والإسرائيليين من ذوي الأصل اليهودي هم ذراري ذلك الشعب، الذي "خرج" من مصر واحتل "أرض إسرائيل" واستوطن فيها لكونها "الأرض الموعودة" من طرف الرب، وأقام من ثم "مملكتي داوود وسليمان" ، وإن هذا الشعب تشرد نحو ألفي عام في الدياسبورا بعد دمار الهيكل الثاني. هي رواية غير موثوق فيها على الإطلاق ، بل إنها انتفت تماماً ولم يكن لها أي أنصار أو أي مريدين حتى نهاية القرن التاسع عشر.**

غير أن بيت القصيد في ما يؤكده ساند هو ما يلي : إن الاكوام السالفة في تلك الذاكرة المشتركة لم تتراكم في دولة إسرائيل بصورة تلقائية ، وإنما حدث ذلك كله بفعل فاعل محدد منذ نهاية القرن التاسع عشر، كومة في إثر كومة، وبواسطة إعادة كتابة الماضي (اليهودي)، على يد كتاب أكفاء عكفوا على تجميع شظايا ذاكرة يهودية – مسيحية واستعانوا بخيالهم المجنح كي يختلقوا ، بواسطتها ، شجرة أنساب متسلسلة لـ "الشعب اليهودي".

بناء على ذلك فإن ما يمكن قوله هو : **على الرغم من أن عملية "اختراع الشعب اليهودي " كانت جزءاً من عملية اختراع شعوب وأمم أوسع واشمل شهدتها أوروبا في القرن التاسع عشر، إلا أن التمسك بالمتخيل القومي لدى إسرائيل والحركة الصهيونية كان ولا يزال أشد هوساً واستحواذاً مما لدى أمم وشعوب معاصرة أخرى. وفي الوقت الذي تعين على القوميات الأوروبية ، برسم ما ذكر ، أن تخترع وعياً قومياً وتاريخياً ورموزاً قومية، على غرار علم ونشيد قومي وطوابع بريد ولباس وأبطال قوميين ولغة جديدة أحياناً ، فإن ما تعين على اليهود اختراعه هو الشعب نفسه،** وفي نهاية المطاف فإن المؤرخين الصهيونيين وجدوا "ضالتهم" في "الشعب الإسرائيلي " في فلسطين فحولوه إلى شعب يهودي، وحولوا "دولة إسرائيل" من ثم إلى "دولة اليهود" أو "دولة الشعب اليهودي".

ويقوم المؤلف ، في هذا الخضم ، بتفكيك الأركان التي قامت عليها عملية اختراع هذا الشعب ، ولا سيما ركنين أساسيين منها ربما يعتبران الأكثر وقعاً وإفكا ، وبالتالي فإن محصلة تفكيكهما تتراءى في الكتاب على الوجه الآتي :

أولاً ، نفي ما يسمى بـ "الشتات اليهودي" ، الذي تقف وراءه فكرة طرد الرومان لليهود سنة ٧٠ للميلاد بعد تدمير الهيكل .

ثانياً ، دحض الادعاء بأن الدين اليهودي لم يكن ديناً تبشيرياً ، بل بقي محصوراً في العرق الذي اعتنقه منذ بداياته . وكانت الدلالة الرئيسية المتوخاة لهذا الادعاء هي ان الشتات الذي رحل إلى مناطق مختلفة من العالم وكتب له البقاء يعود من ناحية جذوره العرقية والقومية إلى القبائل اليهودية الأصلية التي كانت في فلسطين وطردت منها، وأنه لم تدخل اليهودية أجناس وقوميات أخرى أثرت في نقاء العرق اليهودي.

وفي إطار ذلك فإنه يؤكد ، من جملة أشياء أخرى ، أن طرد " الشعب اليهودي" من وطنه لم يحدث أبداً من ناحية عملية ، لكن رواية الطرد والتشريد كانت ضرورية من أجل بناء ذاكرة للمدى البعيد وضع فيها شعب عرقي متخيل ومنفي باعتباره استمرار مباشرا للشعب التوراتي القديم . ويمضي قائلاً :

> **"شرعت بالتفتيش عن كتب تبحث في طرد اليهود من البلاد، وعن سبب أو عن حدث مؤسس في التاريخ اليهودي، كالمحرقة النازية تقريباً ، لكنني فوجئت حين تبين لي أنه لا وجود لكتب أو أدبيات توثق مثل هذا الحدث. والسبب بسيط وهو أنه لم يقم أحد على الإطلاق بطرد شعب البلاد، فالرومانيون لم يطردوا شعوباً (عقب احتلالاتهم)، وما كان في إمكانهم القيام بذلك حتى لو رغبوا فيه ، إذ لم تتوفر لديهم قطارات أو شاحنات من أجل ترحيل أو نفي شعوب أو مجموعات سكانية بأكملها ".**

إن كتاب ساند، يعد تحدياً للمؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية واليهودية أيضاً ، لا للمزاعم الصهيونية التضليلية فقط المتعلقة بـ " الوطن" وسواه من قضايا خلافية . وهو يعيب على هذه المؤسسة برمتها أن أياً من "رموزها" لم يكن شريكاً في السجال الذي دار في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين في شان ما عرف باسم "المؤرخين الجدد" ، والذي أنتج أبحاثاً مهمة شكلت الأرضية الخصبة لكتابه ، جنباً إلى جنب أبحاث نقدية أخرى في علم الاجتماع وعلم الآثار. كما انه يحاول أن يقدم تفسيراً خاصاً لأفول نجم تيار "المؤرخين الجدد" خلال الأعوام القليلة الفائتة ، أو بالأحرى لعدم قدرة هذا التيار، مع أنه الأكثر مدعاة للتعاطف في منظومة العلاقات بين إسرائيل والفلسطينيين ، على أن يترك بصمات تحويلية في الوعي الإسرائيلي العام. إن فحوى تفسيره هو أن استغراق دراسات

"المؤرخين الجدد" في تحليل النتائج المترتبة على حرب العام ١٩٤٨، سواء بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي أو بالنسبة للمجتمع الفلسطيني، لم ينطو على ما من شأنه أن يزلزل قناعات قارة تعود إلى سنوات أقدم كثيراً من وقائع تلك الحرب وما أسفرت عنه ، وهي القناعات التي شكلت "سوراً واقياً" للوعي الإسرائيلي العام، بقدر ما شكلت تكأة لأسئلة تبدو ، في الظاهر ، أكثر صميمية على غرار : ما هو وزن النكبة الفلسطينية قياساً بالمحرقة النازية " الهولوكوست " ؟ وكيف بالإمكان أن نقارن مشكلة اللجوء الفلسطينية مع تشرد شعب في المنفى القسري لمدة ألفي عام ؟. وهذان السؤالان وأسئلة مماثلة كثيرة أخرى زينت ، ولا تنفك تزين ، طريق الهروب إلى الأمام من نتائج حرب ١٩٤٨ في الذهنية الإسرائيلية وممارساتها العامة .

ومع أن "ساند" يبدي تشاؤمه الكبير إزاء إمكان أن يمارس كتابه التأثير المشتهى على الوعي العام، في ظل ما آل إليه الواقع الإسرائيلي المحايث لأعوام العقد الأول من القرن الحادي والعشرين ، إلا إنه يعرب عن الأمل في أن يستنفر محتواه ومنهجه أفراداً آخرين كي يأخذوا على كواهلهم الاستمرار في ما يسميه "مجازفة مساءلة الماضي اليهودي" ، بما يساهم في زعزعة الهوية –المختلقة– التي تمسك بتلابيب السواد الأعظم من الإسرائيليين اليهود.

في واقع الأمر فإن المساهمة الأساسية لهذا الكتاب المهم كامنة في نبش الماضي وإيضاح صيرورة الحاضر، بواسطة فتح النار على الاعتقاد الملفق بالأصل الواحد للشعب اليهودي العرقي. وهو يعد الإيضاح المحدث، من حيث تناوله الطروحات المتداولة في هذا الشأن حتى الفترة الراهنة ، بما في ذلك ضمن مجال الدراسات البيولوجية والوراثية . ففي هذا المجال تحديداً يرى ساند أن مصطلحات مثل "عنصر" و "دم" بدأت بالتلاشي بعد الحرب العالمية الثانية ، حيث صار العلماء يرون أن فكرة العنصر ترجع إلى أسطورة اجتماعية لا إلى واقع علمي . بيد أن الرفض العام لهذه المصطلحات ، لم يمنع العلماء الإسرائيليين من الاستمرار في الاعتقاد بالأصل الواحد للشعب اليهودي. ومع أن مصطلح "العنصر اليهودي" اختفى من البلاغة الجامعية الشائعة ، إلا إن "حقلاً علمياً جديداً" برز بدلاً منه تحت اسم البحث عن أصل الجماعات اليهودية". وفي اللغة الصحافية الشعبوية أطلق على هذا الحقل اسم "البحث عن الجينات اليهودية" ، والذي تمثلت غايته في إيجاد تجانس بيولوجي بين يهود العالم كافة فالهوية الجمعية الإسرائيلية كانت في حاجة إلى تمثلات واعدة عن أصل بيولوجي مشترك، مثلماً أن **الصهيونية كانت في حاجة ، كي تحقق مشروعها ، إلى العامل الديني ، الذي صارت تبحث عنه، وعليه فإن غياب الفصل بين الدولة والمؤسسة الدينية في إسرائيل لم ينجم – في نظره – عن القوة الفعلية للدين ، وإنما نجم عن ضعف الفكرة القومية التي استعارت من الديانة التقليدية ومن مدوناتها معظم تمثلاتها ورموزها ، وبقيت أسيرة لها .**

فضلاً عن ذلك فإن "ساند" يصوغ رؤيا تتعلق بالمستقبل تبدو مسنودة بفهم الماضي فهماً واقعياً . وما يتبين ، على نحو جلي، من رؤيته هذه هو أنه مناهض للكينونة التي تحكم إسرائيل على نفسها البقاء في خضمها والتي يرى أنها تنذر بأوخم العواقب.. ومع أنه **يعتقد أن المشروع المثالي لحل النزاع المحتدم منذ قرابة المائة عام ولحفظ الوجود والوثيق الصلة إقليمياً بين اليهود والعرب، يتمثل في قيام دولة ديمقراطية ثنائية القومية تمتد من البحر الأبيض المتوسط وحتى نهر الأردن ، إلا إنه يرى أنه لن يكون من الحكمة بمكان مطالبة الشعب اليهودي – الإسرائيلي، بعد كل هذا النزاع الدامي والطويل، وفي ضوء التراجيديا التي مر بها كثيرون من مؤسسيه المهاجرين في القرن العشرين، أن يتحول بين عشية وضحاها إلى أقلية في دولته**[1] . ولكن "إذا كان من السخف والبلاهة مطالبة اليهود الإسرائيليين بتصفية دولتهم"، على حد تعبيره ، فإن من الواجب الإصرار على ضرورة أن يكفوا عن الاحتفاظ بها لأنفسهم كدولة منغلقة تمارس الإقصاء والتمييز بحق جزء كبير من مواطنيها الذين ترى فيهم غرباء غير مرغوب فيهم .

وبطبيعة الحال لا يمكن إغفال توقعات المؤلف المتعلقة بإحالات الموقف الرافض لوجود إسرائيل كدولة يهودية مخصوصة وحصرية ، والذي يزداد تصلباً في أوساط "عرب ٤٨" في ضوء صعوبة استشراف عوامل من شأنها فرملة هذه العملية . وهو يؤكد أن التفكير السخيف الذي يفترض أن هذا الجمهور النامي والمتعاظم سيقبل إلى الأبد عملية إقصائه من مراكز القوة السياسية والثقافية ، هو وهم خطر يشبه تعامي المجتمع الإسرائيلي، في معظمه ، عن وضعية السيطرة الكولونيالية في الضفة الغربية وقطاع غزة قبل اندلاع الانتفاضة الأولى . ولكن إذا كانت الانتفاضتان الفلسطينيتان ، اللتان اندلعتا في العام ١٩٨٧ وفي العام ٢٠٠٠ ، قد كشفتا عن ضعف سيطرة إسرائيل في مناطق نظام فصلها العنصري السافر، فإن درجة ضررهما لوجود إسرائيل لا تذكر إذا ما قورنت بالخطر الكامن في طاقة العداء لدى الفلسطينيين المحبطين الذين يعيشون داخلها، وفي ضوء ذلك فإن **الحديث عن "سيناريو كارثي" من قبيل اندلاع تمرد كوسوفي في الجليل، وما يمكن أن يجره من قمع دموي، لا يعد ضرباً من خيال جامح لا أساس له ، وفي حال تحقق مثل هذا السيناريو فإنه يمكن أن يشكل تحولاً حاسماً في تاريخ "الوجود الإسرائيلي في الشرق الأوسط "** .

على صلة بهذا ، ما زال من الملائم أكثر، في قراءة "ساند"، وصف إسرائيل كـ"إثنوقراطيا" . وإذا شئنا التدقيق أكثر فإنه سيكون من الأفضل تعريفها كإثنوقراطيا يهودية ذات ملامح ليبرالية، أي دولة مهمتها الرئيسية لا تنعكس في خدمة "شعب" مدني – متساو وإنما في خدمة "شعب عرقي" (إثنوس) بيولوجي ديني– وهمي تماماً من ناحية تاريخية، لكنه مليء بالحيوية ويمارس الإقصاء والتمييز في حياته السياسية . ولو أن خانة "يهودية" في الهوية تغير وجهها إلى خانة "إسرائيلية" ،

[1] هنا نلاحظ أن المؤلف "شلوموساند" لا يستطيع التخلي نهائياً عن مقولات الحركة الصهيونية (الدائرة الثقافية).

وتصبح مفتوحة ومتاحة لجميع مواطني الدولة، بما يتيح لكل واحد منهم إمكان التحـــرك فـــي حيـــز الهويات وفقاً لإرادته الحرة، لكان من الممكن ربما إبداء قدر أقل من التشدد والشروع في النظر إلـــى إسرائيل باعتبارها كياناً سياسياً يمر بديناميكية قدر تسفر ذات يوم عن تحولها إلى دولة ديمقراطيـــة . غير ان هذا اليوم مازال بعيداً جداً . في حين أن الأسباب والمبررات التي من شأنها أن تبعـــث علـــى الاطمئنان إزاء المستقبل لا تزال غير كافية ، إن لم تكن معدومة تماماً .

الصهيونية والرأسمالية العالمية

نشأت الصهيونية كأيدلوجية وتنظيم في نهاية القرن التاسع عشر، في عصر الصراع الطبقي الحاد الذي خاضته البروليتاريا العالمية، في مرحلة التحول النهائي للرأسمالية إلى الامبريالية.

كانت الصهيونية بحكم نشاطها احد ملحقات الأيديولوجية الامبريالية. ولهذا فلا ينبغي لأحد ان يدهش للتناقض بين شكل الصهيونية وبين مضمونها الحقيقي.

تكونت المنظمة الصهيونية العالمية في المؤتمر الدولي الأول للصهاينة الذي انعقد في بازل بسويسرا في أغسطس ١٨٩٧، واستلهمت نشاطها المنظم بالتزييف، فهي لم ترض بتاريخ ميلادها، لهذا راحت الدوائر الصهيونية والمشايعة لها، تنشر على أوسع نطاق، خرافة مؤداها ان الصهيونية "التي تدعو لإقامة دولة يهودية" هي ظاهرة قديمة قدم العالم، ذلك ان اليهود على امتداد ألاف السنين كانوا دوماً يحلمون بيوم "العودة إلى فلسطين"، والمثير حقاً أن هذه المزاعم لا تزال قائمة حتى أيامنا هذه. إذن فلمن ولماذا اختلقت أسطورة عراقة الصهاينة؟

إن انهيار النظام الإقطاعي، والنمو العاصف للرأسمالية، وظهور طبقة البروليتاريا في أوروبا، والثورة البرجوازية الفرنسية، تلك التحولات العملاقة ذات التأثير البالغ على مصائر شعوب العالم اجمع، قد كانت أقوى من قدرة الأسوار التي ضربت في العصور الوسطى حول الجيتو اليهودي.

لقد شهد عصر الرأسمالية تداعي أسوار الجيتو اليهودي، وعودة الحيوية من جديد إلى عملية اندماج اليهود في الشعوب التي يعيشون على أرضها، تلك العملية التي كانت قد توقفت نسبياً في العصور الوسطى.

وقد أشار فلاديمير ايليتش لينين إلى أن "سقوط العصور الوسطى، ونمو الحرية السياسية في أوروبا قد اقترن بالتحرير السياسي لليهود، وتحويلهم عن اللكنة الطائفية إلى لغة الشعب الذي يحتويهم، وعلى العموم فقد كان اندماجهم في بقية السكان خطوة لا شك في تقدمها.

إن عملية الاندماج الجارفة التي أشار إليها لينين قد أزاحت من طريقها كل العقبات، وبذلك اهتزت تلك الركيزة الأساسية التي كان يعتمد عليها المليونيرات اليهود وملوك الصناعة.. وهي "اليهودية".

الصهيونية قد ظهرت على أي حال ... فما هي الأسباب الرئيسية لظهورها؟

١– ان التناقضات بين انجلترا وفرنسا، ثم ألمانيا فيما بعد، فيما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط الذي كان لا يزال واقعاً في نطاق الإمبراطورية العثمانية الآيلة للسقوط، والصراع المرير بين هذه الدول الاستعمارية على التقسيم النهائي لتركة الإمبراطورية التركية، إن هذه العوامل كانت تفرض على الأفراد المتصارعة البحث عن مبررات مقبولة لتوسيع مجال نفوذها.

– كانت فكرة توطين اليهود في فلسطين التي سعت الدوائر الحاكمة البريطانية بدأب وإصرار لتحقيقها، تبدو أفضل شكل مناسب للاستعمار (كان بسمارك مستعداً هو الآخر لاستغلال نفس الفكرة بتوطين اليهود على امتداد خط سكة حديد برلين – بغداد)

– وعلى ذلك فقد كانت هناك مصلحة محددة ومباشرة لدى بريطانيا وفرنسا وألمانيا في دعم تلك القوى التي آلت على نفسها أن تقوم بدور المنفذ العملي للمشروع ذي الفائدة المشتركة وهو استعمار فلسطين أو استعمار بعض أجزاء الإمبراطورية العثمانية كما كان يخطط بسمارك.

٢– ان اشتداد حدة الصراع الطبقي في مطلع القرن العشرين قد وضع الامبريالية امام ضرورة توحيد ودعم كافة القوى المعادية للحركة البروليتارية العمالية، ووحدتها وتضامنها. وعلى ذلك فقد كانت هناك مصلحة موضوعية اكيدة لدى كافة القوى الحاكمة في جميع الدول الاستعمارية بلا استثناء، في تبني واحتضان الصهيونية.

٣– ان عملية الاستقطاب الطبقي، وتحلل الجاليات اليهودية، وطموح الكادحين اليهود إلى التحرر من سيطرة زعماء الجاليات في كل بلد توجد به تجمعات يهودية، ان ذلك كله قد أدى إلى ظهور وتجمع العناصر اليهودية الثرية ذات النفوذ المعرض للضياع، وذات الرغبة الموحدة في تنظيم صفوفها لاستعادة نفوذها وتأكيد زعامتها بأي وسيلة، وعلى ذلك فقد كانت هناك مقدمات سياسية كافية موضوعيا لظهور المنظمة الصهيونية العالمية.

وبعبارة اخرى فان الصهيونية قد ظهرت في صورة المنظمة الصهيونية العالمية، والاحتكار الاستعماري اليهودي، كتجسيد مادي لمحاولات البرجوازية اليهودية الممالئة للاستعمار لاستعادة النفوذ والسيطرة على جماهير اليهود، وتعطيل عملية اندماج اليهود في الشعوب الأخرى – ذلك الاندماج الذي لا شك في تقدميته كما قرر لينين– ، وخلق رصيد سياسي وبشري– على نطاق كل بلد كما على نطاق العالم باسره– يكون دوماً على أهبة الاستعداد لخدمة أهداف ومصالح الحليف الرئيسي والشريك الأقوى للصهيونية أي أقوى الدول الامبريالية نفوذا في كل فترة تاريخية.

وهكذا يبدو بوضوح لا يقبل الشك ان شعار " الدولة اليهودية" الذي ارتفع في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كان مجرد أداة، فالقادة الصهاينة كانوا ينظرون باستمرار إلى إنشاء الدولة اليهودية ليس كهدف في حد ذاته وإنما كأداة لتحقيق أهداف أخرى أكثر شمولا وخطورة وتتلخص في السيطرة المطلقة على اليهود، وتحقيق مزيد من الثراء الذي يمكن من فرض النفوذ والتحكم ، ودعم الاستعمار العالمي والدفاع عن مصالحه.

إن الذين يروجون أسطورة "عراقة الصهيونية" إنما يسعون في حقيقة الأمر إلى إخفاء المضمون الطبقي الحقيقي للصهيونية وأطماعها ومخططاتها التوسعية، كما يسعون إلى طمس معالم الميلاد الحقيقي للصهيونية وأسباب وملابسات ظهورها.

نشرت مجلة " الدراسات الفلسطينية " عدد (٧٣) شتاء ٢٠٠٨ ، دراسة د.عزمي بشارة بعنوان : "دوافع إسرائيل إلى الاعتراف بها دولة يهودية[1]".

ولأهمية هذه الدراسة ، قامت الدائرة الثقافية بتلخيصها مع الحرص على تقديم أهم الأفكار التي تضمنتها .

يشرح عزمي بشارة في هذه الدراسة دوافع مطالبة إسرائيل الفلسطينيين والعرب ودول العالم بالاعتراف بها دولة يهودية، ويكشف الغطاء عن جملة من الأهداف العملية والمعنوية التي تسعى إسرائيل لها جرّاء هذه المطالبة، ويتصدرها إلغاء حق العودة، وشطب المبدأ الذي تقوم عليه مطالبة عرب ٤٨ بإلغاء التمييز العنصري ضدهم بصفتهم مواطنين في دولة تدّعي الديمقراطية، وأبعد من ذلك تسعى إسرائيل للحصول على اعتراف مبدئي بشرعية الصهيونية التاريخية التي ألحقت ما ألحقته من كوارث بالشعب الفلسطيني، كما تهدف، في المدى البعيد، إلى إرساء أساس شرعي لترحيل من تبقى من الفلسطينيين في وطنهم بذريعة أن وجودهم يتناقض مع جوهر الدولة، ويمثل تهديداً لنقاء هويتها.

ويضيف : منذ خطاب "أريئيل شارون" في العقبة الذي طالب فيه بالاعتراف بإسرائيل دولة يهودية، ومنذ تشديد الرئيس جورج بوش في خطابه على هذه الفكرة، وحتى تأكيد "إيهود أولمرت" لها في مؤتمر أنابولس أمام الوفود العربية، تحولت هذه الفكرة بفعل التكرار من تعريف ذاتي صهيوني إلى مفهوم معروض على الساحة الدولية .

لكن الأمر الأعمق هو طموح إسرائيل إلى أن يتحول الاعتراف بها إلى اعتراف بالصهيونية ، وبالتالي يتحول الاعتراف العربي من اعترف تسووي واقعي إلى اعتراف مبدئي بشرعيتها التاريخية ، وهذا يعني أنها كانت تاريخياً على حق، والعرب على خطأ. وفيما عدا نفيه حق العودة فإن مثل هذا الاعتراف، إذا حدث، هو إنجاز سياسي معنوي ثقافي يعادل إقامة دولة إسرائيل لا في الواقع الملموس فحسب، بل في الثقافة والفكر والخطاب السياسي أيضاً.

أما عن العلاقة المميزة بين الدين والدولة في إسرائيل فيرى د.عزمي أن هذه العلاقة تعود إلى التطابق الكامل بين الدين والقومية كما عرفتها الصهيونية ، على عكس القومية العربية التي نشأت في خضم الصراع مع مفهومي الأمة الدينية والطائفة .

ومنذ برنامج بازل الصهيوني الذي أقر جوهر الصهيونية في إقامة دولة لليهود هي في الوقت ذاته دولة يهودية ، استخدمت تعبيرات دينية معلمنة كعناصر مكونة للب البرنامج السياسي للحركة الجديدة،

[1] التغميق من قبل الدائرة الثقافية .

مثلاً : " إقامة بيت قومي لشعب إسرائيل في أرض إسرائيل، "شعب إسرائيل"، "أرض إسرائيل"، وهذان الأخيران هما تعبيران دينيان توراتيان .

في الواقع ، لم تتبن الصهيونية التبرير الديني التاريخي فحسب ، بل تبنت ضمنياً أيضاً ، في روحها الداخلية وبنية خطابها ولاهوتها السياسي ودوافعها وقدرتها على التجييش والتعبئة ، فكرة "غئولاه" خلاص ، اليهودية الدينية المسيانية . فقد تحولت مصطلحات مثل "غالوت" (منفى) و "غئولاه" إلى مفاتيح لقبول الفكر الصهيوني، وإلى دافع إلى التجند في الحركة الصهيونية كحركة خلاصية تستثمر المخزون الديني للخلاص وتستخدمها جميعاً لغرض قومي سياسي .

ويستطرد د.عزمي : ومهما نفصل في الأصول والمصادر من ناحية، وديناميكية التطور من ناحية أخرى، يبقى سياق تطور الديمقراطية الإسرائيلية هو السياق الصهيوني، **فالاتفاق على هدف الدولة كدولة لليهود وما يترتب على ذلك، هو أساس "الديمقراطية الإسرائيلية".**

إن الصهيونية ، لا المواطنة، هي وعاء الديمقراطية الإسرائيلية، وهي العائق الذي يحول دون تطورها في الوقت نفسه . فهي تتحول في ساعات الأزمات تحديداً إلى قبيلة ويتبين أنها كانت في الواقع، في غير ساعات الأزمات " ديمقراطية" داخل القبيلة .

قد يستغرب المرء حاجة المشروع الإسرائيلي المتأخرة إلى قوننة هذا التعريف " دولة يهودية" الذي تحول بالتدريج إلى عبارة تكاد تكون مقدسة في التشريع الإسرائيلي، علاوة على جعل قبولها ، و "الاعتراف بها" ، شرطاً يجب ان يتوفر في أي حزب يرغب في خوض الانتخابات البرلمانية ولا شك في أن هذا ما أصاب قادة دول أجنبية طلب منهم أن يؤكدوا أن إسرائيل دولة يهودية في أثناء المفاوضات مع الفلسطينيين .

فعندما رفض الفلسطينيون الطلب، لأنه يعني تخليهم العلني عن حق العودة حتى قبل بدء المفاوضات، تبنت أميركا المطلب لتبديد مخاوف إسرائيل . ولذلك **جاء في كلمة الرئيس الأميركي بوش في مؤتمر العقبة في ٢٠٠٣/٦/٤ ما يلي : " اليوم، أميركا ملتزمة بقوة أمن إسرائيل كدولة يهودية مفعمة بالحيوية". وهكذا أصبحت يهودية إسرائيل مسألة دولية .**

أما بالنسبة لمطالبة حكومة دولة العدو الإسرائيلي الاعتراف بـ"يهودية إسرائيل"، فيقول د.عزمي بأن هذا المطلب، أو الشرط الإسرائيلي ، ورد "كشرط تفاوضي لأول مرة في سياق النقاش في الحكومة الإسرائيلية بشأن ما يسمى "خريطة الطريق" في ٢٠٠٣/٥/٢٥، فلم تقبل هذه الخطة الأميركية، وإنما قبلت في نص قراراها " الخطوات المترتبة على الخريطة" مشروطة بأربعة عشر شرطاً ، **وجاء في الشرط السادس من هذه الشروط الأربعة عشر: "المطالبة بتنازل فلسطيني عن كل ادعاء بحق العودة للاجئين الفلسطينيين إلى داخل إسرائيل.**

(يطلب من الفلسطينيين أن يعلنوا أن إسرائيل دولة يهودية في إطار التصريحات الافتتاحية المطلوبة من الزعماء في بداية خريطة الطريق) . هذا هو حرفياً نص قرار الحكومة ".

لا شك إذاً ، –كما يستنتج بحق د.عزمي– في أن مطالبة إسرائيل بالاعتراف بيهوديتها جاءت على خلفية مطالبتها الفلسطينيين بالتخلي عن حق العودة قبل التفاوض ، لا على خلفية النقاش فيما يتعلق بقرار التقسيم إلى دولتين، ولا على أساس النقاش الجاري بين المتدينين والعلمانيين بشان يهودية الدولة .

وحول " وثيقة الاستقلال "، " وقانون العودة والمواطنة " يقول د.عزمي بشارة : "يرتكز قانون العودة الإسرائيلي على أن إسرائيل، غاية ومنطلقاً ، هي دولة الشعب اليهودي ، وهذا ما يؤكده قانون العودة عملياً وينطلق منه، ويطبق في الواقع. وكذلك حال وثيقة الاستقلال من قبله . فقد وافقت المحكمة العليا على الوثيقة واعتمدتها قاعدة دستورية للدولة عندما منعت حركة الأرض من خوض الانتخابات على لسان القاضي "أغرانات": "ليست دولة إسرائيل دولة مستقلة ذات سيادة فحسب، بل إنها أقيمت أيضاً كدولة يهودية على أرض إسرائيل ، لأن عملية إقامتها تمت أولاً وقبل أي شيء بفعل حق الشعب اليهودي الطبيعي التاريخي في أن يعيش ، مثل أي شعب ، مستقلاً ".

ولفهم علاقة يهودية الدولة بكونها دولة اليهود، وبمفهوم المواطنة، من المفيد أن نراجع خطاب أول رئيس للحكومة "دافيد بن – غوريون" في معرض تقديمه قانون العودة لسنة ١٩٥٠.

"إن دولة إسرائيل تختلف عن بقية الدول في أسباب قيامها وأهدافها . لقد قامت قبل عامين فقط، لكن جذورها مزروعة في الماضي البعيد، وهي تنهل من ينابيع قديمة . نظامها ينحصر في سكانها ، لكن أبوابها مشرعة لكل يهودي بما هو يهودي. ليست هذه الدولة يهودية من ناحية كون اليهود أغلبية سكانها . إنها دولة اليهود حيثما كانوا، وهي لكل يهودي يريدها ... يوم ١٤ أيار /مايو ١٩٤٨ لم تقم دولة جديدة من لا شيء، وإنما أعيد عصر سابق إلى مجده بعد ١٨١٣ عاماً على هدم بدا أبدياً لاستقلال إسرائيل في عهد "باركوخبا" ".

ويعلق د.عزمي على خطاب بن غوريون بقوله : "يعيدنا دافيد بن – غوريون ١٨١٣ عاماً إلى الوراء للبحث عن مصادر الدولة، وهنا يتضح أنه حتى بالنسبة إلى علماني مثله لا فارق حقيقياً بين "دولة يهودية" و "دولة اليهود" . لماذا ؟ الأمر هنا مفهوم تماماً . لأن الصهيونية في أوج علمانيتها لم تنجح قط في وضع تعريف علماني لليهودية يختلف عن تعريف الشريعة لهذا الانتماء بأنه دين . فاليهودي قومياً في نظر الصهيونية هو أيضاً اليهودي طائفياً .

إذا عدنا إلى كلام بن – غوريون في قانون العودة نجد أن الهوية اليهودية هي التي تقيم الدولة لا العكس، وهي أساس القانون الإسرائيلي وأساس المواطنة لا العكس، فهو يقول: "قانون العودة من القوانين الأساس بالنسبة إلى إسرائيل ، إنه يتضمن مهمة مركزية لدولتنا، مهمة تجميع الجوالي من المهجر . يقرر هذا القانون أن الدولة ليست هي التي تقرر حق يهود الخارج في الاستقرار فيها، وإنما حق اليهودي بذلك مطبوع فيه بما هو يهودي، في حال قرر بإرادته أن ينضم إلى توطين البلد .

هذا الحق سابق على القانون. وليس في إمكان أي قانون إسرائيلي أن يغلبه . والقانون الحالي هو تعبير عن حق اليهودي في المهجر ، بما هو يهودي، في أن يستوطن في فلسطين... بعد ذلك تبدأ الشعوذة الكلامية للتوفيق بين هذا " الحق ومبدأ المساواة .

ويقول : " هذا الحق هو الذي بنى الدولة ، ويكمن مصدره في الرابط التاريخي الذي لم ينقطع بين الشعب والوطن . وقد أقر قانون الشعوب بهذا الحق في الواقع ..." والمقصود بقانون الشعوب طبعاً، وعد بلفور وتبنيه في صك الانتداب ، أما إذا كان قرار التقسيم هو المقصود بإقرار قانون الشعوب (القانون الدولي) بهذا الحق، فصحيح أن القرار المذكور يستخدم مصطلح "الدولة اليهودية" و " الدولة العربية" في فلسطين ، لكنه يؤكد مواطنة المقيمين بكل دولة ما داموا لم يتقدموا بطلب مواطنة في الدولة الأخرى لأنها تعبر عنهم وطنياً . فبموجب قرار التقسيم لا فارق بين مواطنة كل من العربي واليهودي في الدولة اليهودية، وكلتاهما تشتق من الإقامة بالمنطقة التي أقيمت فيها الدولة . لا بفعل "حق عودة" ولا بفعل رابط تاريخي ، ديني أو غير ديني .

كان قرار إقامة الدولتين اليهودية والعربية سياسياً لا أيديولوجياً أو فكرياً . وقد استغلته القيادة الصهيونية سياسياً أيضاً ، لكن بغرض تحقيق مشروعها الأيديولوجي .

في " وثيقة الاستقلال" يتناوب المصطلحان "دولة يهودية" و "دولة اليهود" عدة مرات. والوثيقة كما هو معروف ليست قانوناً، ولم يتم تبنيها كقانون ، لكن لها قيمة معيارية دستورية في بنية الدولة القانونية .

وتبدأ الوثيقة في الفقرة الأولى بالجمع بين الرابطة الدينية والحقوق السياسية والقومية جمعاً لا ينفصم .

أما الفقرة التي تجمع بين يهودية الدولة وديمقراطيتها ويتم الاستناد إليها في التشريع ، فقد ورد فيها : " تكون إسرائيل مفتوحة الأبواب للهجرة اليهودية ولجمع الشتات ، وتهتم بتطوير البلد لمصلحة سكانها جميعاً، وتقام على أسس الحرية والعدل والسلام بموجب رؤى أنبياء إسرائيل. وتقيم مساواة اجتماعية وسياسية بين مواطنيها كلهم من دون تمييز في الدين والعنصر والجنس، وتضمن حرية العبادة والضمير والتعبير والتعليم والثقافة، وتحافظ على الأماكن المقدسة للأديان كلها، وتكون أمينة على ميثاق الأمم المتحدة".

لكن هذه الفقرة التي تبدو فيها إسرائيل دولة قومية تعبر عن حق شعبها في تقرير المصير، وتمنح، في الوقت ذاته ، المساواة لجميع السكان، جاءت بعد تأكيد الحقوق الدينية كحقوق سياسية .

وعندما يتطرق رئيس المحكمة العليا الإسرائيلية الأكثر شهرة وتأثيراً في تاريخها ، "أهارون براك"، إلى مصطلحي " يهودية " و "ديمقراطية" في القانون يقول : "علينا أن نذكر أن المكانة المعيارية التي منحت لقيم الدولة، كيهودية وديمقراطية، هي مكانة معيارية دستورية فوق قانونية . **وسيلغى أي**

تشريع عادي يمس، دستورياً ، حقاً من حقوق الإنسان حتى لو كان هدفه مقبولاً ، وحتى لو لم يتجاوز المدى المطلوب، إذا لم يتلاءم مع قيام دولة إسرائيل كدولة يهودية وديمقراطية .

ويلخص القاضي بلغته ما يجب أن يكون عليه هذا الإجماع في تفسير معنى يهودية الدولة كما يلي:

١– دولة يهودية هي دولة الشعب اليهودي .

٢– دولة يهودية هي دولة يتشابك تاريخها ويندمج في تاريخ الشعب اليهودي، لغتها عبرية وأعيادها تعكس انبعاثها القومي .

٣– دولة يهودية هي دولة تعتبر الاستيطان اليهودي في حقولها ومدنها على رأس سلم أولوياتها .

٤– دولة يهودية هي دولة تكرس ذكرى اليهود الذين ذبحوا في المحرقة ، وتشكل حلاً لمشكلة الشعب اليهودي الفاقد الوطن والاستقلال.

٥– دولة يهودية هي دولة تنمي الثقافة اليهودية والتربية اليهودية وحب الشعب اليهودي .

٦– دولة يهودية هي دولة تتبنى قيم الحرية والعدالة والاستقامة والسلام من إرث إسرائيل.

٧– دولة يهودية هي دولة تستقي من التقاليد الدينية ، والتوراة هي الكتاب الرئيسي بين كتبها وأنبياء إسرائيل هم أساس أخلاقياتها .

٨– دولة يهودية هي دولة تؤدي فيها الشريعة اليهودية دوراً مهماً ، وتطبق فيها قوانين الزواج والطلاق بموجب قانون التوراة .

يعلق د.عزمي على ما سبق بقوله : في هذه التعريفات ، لا نكاد نميز أو نلحظ علمانية القاضي وليبراليته .

طبعاً ، هناك في المحكمة العليا ذاتها من يمثل آراء أقرب إلى هذه النزعة، ومن منظريها القاضي السابق في المحكمة العليا "مناحم إيلون" ، وهو أستاذ القانون العبري في الجامعة العبرية سابقاً ومؤلف أهم الكتب في الشريعة والقانون العبري . فتعريفه للدولة اليهودية أكثر صرامة من "براك"، كما أنه يدعو إلى حسم مسألتي القيم اليهودية والديمقراطية بالنسبة إلى المجتمع، فالإجماع لا القيم التي تتبناها أو تفسرها المحكمة العليا هو ، في رأيه ، أساس التعليمات ذات الطابع الدستوري كافة .

هذا التعريف خاص بالجهاز القضائي في دولة إسرائيل ولا شبيه أو مثيل له في أي جهاز قضائي ديمقراطي في العالم. لم نجد تعريفاً لقيم أميركية وديمقراطية ، ولا لقيم فرنسية وديمقراطية ، أو كندية وديمقراطية ، ففي دساتير تلك الدول يتم الحديث عن ديمقراطية تتوق إلى الحرية لا عن قيم فرنسية أو كندية أو غيرها. وهذه ليست حال دولة إسرائيل حيث عبارة يهودية تعبر عن جوهر الدولة ذاته .

لقد كانت يهودية الدولة هي الأداة التي جعلت الدولة قادرة على أن تسن القوانين الرامية إلى مصادرة أراضي العرب باعتبار أن الاستيطان اليهودي واستيعاب الهجرة هما قيم أساسية في أساس المصلحة العامة ولو تناقضت مع حقوق المواطنين غير اليهود ، وضمنها حقوق الملكيـــة . **كمـــا أن يهودية الدولة، كهدف قيامها وأساسه، جعلت إسرائيل ترفض تطبيق حق عودة اللاجئين ، مع أنهـــا رسمياً وافقت على قرار التقسيم** وإقامة دولة يهودية من المفترض أن يكون ما يقارب نصف ســكانها من العرب قبل أن تعمل على تهجيرهم، ثم احتلال أرض الدولة الفلسطينية أيضاً . ولا يزال الحفـــاظ على يهودية الدولة يشكل أساساً لجملة من التشريعات العنصرية .

فقد أقر البرلمان الإسرائيلي في ١٨ حزيران / يونيو ٢٠٠٣ ، بالقراءة الأولى ، اقتراح قانون " المواطنة والدخول إلى إسرائيل (مؤقت) ٢٠٠٣". وينص القانون على منع أي من " قاطني الـــضفة الغربية وقطاع غزة " من المواطنة أو الإقامة بإسرائيل داخل الخط الأخضر .

وتتلخص القضية طبعاً بمنع زيادة عـــدد المـــواطنين العـــرب فـــي الـــداخل، لأن الموضـــوع ديموغرافي متعلق بيهودية الدولة وليس شأناً أمنياً .

لقد قدم للكنيست الخامس عشر (١٩٩٩–٢٠٠٣) خمسة عشر قانوناً عنصرياً تسعى كلها إما لتكثيف تعريف دولة اليهود أو يهودية الدولة ، فتفرض على المواطن العربي قسم الولاء ليهوديتها، وتجبر النائب لا على الولاء للدولة وقوانينها فحسب، بل أيضاً لرموزها وعلمها ونشيدها الوطني .

كما اقترحت قوانين أساس تحصن رفض قانون حق العودة للفلسطينيين، وأخرى تقيد مواطنـــة العرب في الداخل. وقد مرت أغلبية هذه القوانين **بالقراءة التمهيدية حتى الآن ، واتخذت طابعاً إعلانياً وإعلامياً، لكن النزعة واضحة تمام الوضوح . إنها حمى تأكيد يهودية الدولة لا ضد حق اللاجئـــين في العودة إلى وطنهم فحسب، بل أيضاً ضد أي محاولة لإحراج الصهيونية بتوسيع مفهوم المواطنة والحقوق إلى درجة المجاهرة بالمواقف العنصرية .**

في ذكرى وعد بلفور: دولة للشعب اليهودي ..؟[1]

د . محمد عبد الشفيع عيسى
أستاذ باحث في مركز دراسات الوحدة العربية ،
وأستاذ في معهد التخطيط القومي ، القاهرة، سابقاً .

يقوم الجناح الأكثر تطرفاً في الحركة الصهيونية المعاصرة (المسمى إعلامياً بـ "اليمين " أو "اليمين المتشدد") هذه الأيام ، بإجراء مراجعة كبرى في بنية الأيديولوجيا والممارسة الصهيونية. ويراهن هذا الجناح على ما لم تحلم به الأجنحة المتطرفة الأخرى خلال الأعوام الستين الماضية : حلم تثبيت أركان دولة تكون غير قابلة للنقض التاريخي .

ففي ظل سيطرة هذه الأجنحة جميعاً ، تحقق فشل مشروع "إسرائيل الكبرى" الذي تصور البعض بلوغه الذروة جراء عدوان عام ١٩٦٧، وما أنتجه من احتلال بقية فلسطين التاريخية وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان . وقد تحقق هذا الفشل بعد مسلسل تاريخي افتتحه صمود عبد الناصر بعد "النكسة"، وشن حرب الاستنزاف والإعداد لحرب ١٩٧٣، ثم انطلاق هذه الحرب، بعد رحيله، في فعل عربي مشترك . واشتمل ذلك المسلسل التاريخي على جملة تطورات مفصلية تمثلت بصفة خاصة في التفاف الشعب العربي حول مشروع المقاومة ورفض التطبيع ، وافشال مخطط سحق الكيان الفلسطيني ، وشن الانتفاضة الثانية لنحو خمس سنوات (٢٠٠٠– ٢٠٠٥)، وإجبار العدو الإسرائيلي على الانسحاب من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، وعدم تمكينه من تحقيق النصر في حرب لبنان عام ٢٠٠٦، ومجابهته بموقف مقاوم لم يتوقعه في حرب غزة عام ٢٠٠٩ .

لذلك كله، فشل مشروع "إسرائيل الكبرى"، وأجبرت الحركة الصهيونية على الاستدارة نحو مشروع "إسرائيل الكبيرة" رويداً رويداً ، وتم العمل على تقنين هذا التحول من خلال اتفاقات أوسلو (عام ١٩٩٣) التي نصت على الاعتراف المتبادل بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية. كان هذا التحول بمثابة انتقال صهيوني من خطة "التوسع الأفقي " إلى خطة "التوسع الرأسي ". ولم يكن "التوسع الرأسي " إلا محاولة لفرض المحتوى اليهودي لدولة فشل مخطط بنائها "الإمبراطوري " على هيئة "إسرائيل الكبرى".

ولئن كان المشروع الإمبراطوري لإسرائيل "الكبرى" قد اقتضى طرح مخططات مستحيلة من قبيل " الخيار الأردني " و"الترانسفير"، فإن مشروع "إسرائيل الكبيرة " اقتضى طرح مخطط بدا ممكناً، عبر "أسرلة" المجتمع السياسي، وتهويد الأرض والمجال الديمغرافي، تحت مظلة "اتفاقات أوسلو" وتحت أنف "السلطة الفلسطينية ". وكانت "الأسرلة " موجهة نحو العرب الفلسطينيين أصحاب

[1] المصدر : موقع الطليعة العربية – www.al-taleaa.info

البلاد (عرب ١٩٤٨) لدمجهم قسراً في هوية " إسرائيلية " تحجب كينونتهم القومية وتمارس التفرقة ذات الطابع العنصري عليهم . أما تهويد الأرض والمجال الديمغرافي لإسرائيل تلك الكبيرة، فقد اتجه نحو تكريس ضم القدس الشرقية، والتوسع الاستيطاني داخل الضفة الغربية، وتمزيق هذه الضفة، والشروع في رسم "حدود" مفترضة جديدة بينها وبين الكيان الإسرائيلي، انطلاقاً من خطوط الاستيطان وشبكة الطرق المواكبة لها ، ومن " الجدار العازل ".

أولاً : شعار "حل الدولتين :

لقد واكب تلك الحركة الرامية إلى توطيد بناء "إسرائيل الكبيرة"، كدولة ذات طابع عنصري، طرح شعار مفاجئ تلازم مع إخفاق عملية أوسلو، ومع بلوغ ذروة الانتفاضة. وأتى هذا الشعار، ابتداء، من الدوائر الأمريكية في ظل إدارة بوش عند نهاية دورته الأولى، وبدء دورته الثانية (٢٠٠٤– ٢٠٠٥)، وبرضا من الدوائر المتنفذة في "اللوبي الصهيوني " داخل أمريكا وبعض دوائر التفكير الاستراتيجي داخل إسرائيل نفسها. وكان هذا الشعار هو "حل الدولتين ".

وتساءل البعض عن حق : كيف يطرحون حل الدولتين، في حين أن "دولتهم " قائمة على قدم وساق، وتم الاعتراف المتبادل بها فعلاً في سياق اتفاقات أوسلو؟ وكان الجواب المتوقع على ذلك التساؤل ، أن الدوائر الأمريكية– الصهيونية تسعى إلى "جلب " اعتراف مجدد بإسرائيل، بمناسبة اعتراف دولي واسرائيلي بدولة " فلسطينية " ، هي في الحقيقة " دويلة " غير قابلة للاستقلال والاستقرار. لقد كان ذلك، إذن، بمثابة استدعاء " اعتراف ثان " بإسرائيل، من جانب من اعترف بها، ومن لم يعترف، في أوساط الفلسطينيين والعرب أجمعين.

ثانياً : شعار جديد: دولة يهودية :

بعد توقف الانتفاضة عام ٢٠٠٥– ٢٠٠٦، بدأ يتخلق واقع جديد، تميز بتكريس المقاومة الفلسطينية في البيئة العربية المحيطة بفلسطين (وخاصة لبنان)، ودعمها في دائرة الجوار الإقليمية (على محوري إيران وتركيا). وبدا في ظل ذلك أن استدعاء "الاعتراف الثاني " كان غير كافٍ لمواجهة احتمالات تصاعد التحدي العربي والإقليمي . ومن جهة ثانية، فقد بدا أن مخطط "الأسرلة" لم ينجح في تقويض أركان الوعي بالهوية القومية لدى فلسطينيي ١٩٤٨. وتبدى، من جهة ثالثة، أن تهويد الأرض والمجال الديمغرافي حقق نجاحاً اكبر من المتوقع، من خلال تثبيت واقع الاستيطان والتفتيت في الضفة ، وثبات الواقع الذي أنتجه "الجدار"، و"تقدم " عملية التهويد للقدس الشرقية بما فيه محيط "الأقصى" والحي العربي .

لهذه الاعتبارات الثلاثة، شرعت الدوائر الصهيونية– أمريكياً وإسرائيلياً – في طرح على استحياء لشعار جديد، منذ عام ٢٠٠٨، يرتكز على ربط الموافقة على "حل الدولتين، ليس بالاعتراف بإسرائيل اعترافاً جديداً ، وانما بالاعتراف بها كدولة "يهودية " بالذات .

لقد كان هذا هو الرد على فشل مخطط "الأسرلة". فما دام "عرب ١٩٤٨ " لم يستسلموا لهوية مفروضة ذات طابع عنصري، فليكن الحل إخراجهم من المعادلة كلياً ، بإحداث عملية "ترانسفير" باتجاه الضفة التي سترسم حدودها من جديد، عبر عملية لتبادل الأراضي والسكان، من خلال احتفاظ إسرائيل بما يسمى "الكتل الاستيطانية"، مقابل حصول الفلسطينيين على أراضي قاحلة غير مسكونة وغير ذات أهمية استراتيجية داخل الحيز " الإسرا ئيلي " الراهن .

ويقدم شعار "الدولة اليهودية"، ضمن السياق الدعائي الإسرائيلي، من خلال بديلين : بديل أول يقبل ببقاء "عرب ١٩٤٨ "، ولكن بشرط قبولهم الهوية اليهودية للدولة، كهوية أحادية لكيان صهيوني– عنصري، أي بشرط "الدمج القسري " في دولة لا تمثلهم ، بعد أن فشل مشروع "الدمج الطوعي " و" شبه الطوعي "، أي الأسرلة .

وبديل ثاني "احتياطي " (في حال لم ينجح تسويق البديل الأول)، وهو ما قد يسمى "البديل الأفضل الثاني " ، ويقوم على "ترانسفير" التطهير العرقي لـ " عرب ١٩٤٨ " باتجاه المناطق التي سيتم التخلي عنها، كما أشرنا، لصالح دويلة " فلسطينية " " منزوعة السلاح " ، يقال لها: قابلة للحياة.

ثالثاً : **شعار "جديد جداً " : دولة للشعب اليهودي** :

اعتباراً من عام ٢٠٠٩، ثم خلال عام ٢٠١٠، وخاصة أثناء جولات المفاوضات الأخيرة بين الحكومة الصهيونية والسلطة الفلسطينية، تم الإلحاح على تعديل الشعار ليصير هكذا : " دولة للشعب اليهودي "– مقابل " دولة للشعب الفلسطيني ".

وفي هذا الطرح الدعائي– السياسي الجديد، يصبح من المبرر فكرياً ، ومن المشروع قانونياً، تحقيق أمرين متلازمين :

١– توفير أفضل تغطية ممكنة للتعامل العنصري إزاء "عرب ١٩٤٨ "، من خلال البديل الأول بالدمج القسري، أو البديل الثاني حيث "مكانهم الطبيعي " مع "شعبهم " في الضفة بحدودها الجديدة، و"إسرائيل الكبيرة" الجديدة شاملة أرض "الكتل الاستيطانية " والأراضي الأخرى المصادرة بفعل "الجدار"، بالإضافة إلى كامل القدس الشرقية . إسرائيل هذه هي "المكان الطبيعي " للشعب اليهودي أيضاً ، أينما كان .

٢– يتألف الأمر الآخر من شقين، هما :

أ– تكريس الشرعية الدولية لـ " قانون العودة " الإسرائيلي– حيث يحق لكل يهودي في أي مكان في العالم الانتقال للعيش داخل " أرض الميعاد"– بما يترتب على ذلك من إسباغ المشروعية القانونية على هجرة اليهود إلى إسرائيل وسكناهم في فلسطين المحتلة.

ب– نزع الشرعية الدولية– المشروعية القانونية والسياسية معاً – عن أية محاولة لتطبيق "حق العودة" الفلسطيني باتجاه الإقليم الذي سيطرت عليه الحركة الصهيونية عام ١٩٤٨ من أرض فلسطين التاريخية.

وإن في ذلك، الرد الحاسم على دعوات "رفض التوطين " في لبنان بالذات، ومن ثم زرع "قنبلة متفجرة" داخل هذا البلد، وفي سورية أيضاً، وربما الأردن . فعلى العرب– وغيرهم– أن يوفروا "الوطن البديل " للاجئين الفلسطينيين في كافة المنافي، عربية كانت أو غير عربية، ويبلغ عددهم نحو خمسة ملايين لاجيء .

وهكذا، ومن خلال الشعار الجديد جداً : "إسرائيل دولة للشعب اليهودي "، يمكن الادعاء بتحقق نوع من "النقاء العرقي " لكيان سياسي يتحول تدريجياً إلى كيان عنصري نموذجي، كمثال نادر– وربما وحيد– في العالم المعاصر.

إسرائيل، هكذا، لا تصير مجرد "دولة يهودية"، ويرفع الالتباس عن الطابع الديني الذي يوحي به ذلك، وانما تستحيل إلى دولة يقيمها ويحميها المتدينون والعلمانيون معاً ... دولة لـــ "شعب " يعرّف بانتمائه إلى دين معين، وليس بإيمانه الحقيقي بهذا الدين .

هنا، يمكن أن تصير إسرائيل، في المستقبل، وفق تلك الرؤية، دولة لشعب محدد عرقياً ودينياً، أي دولة قومية من نوع خاص، أو " دولة– أمة " ، حيث يمثل الانتماء الديني أساساً لتشكيل أمة مزعومة وظاهرة " قومية " مصاحبة لها .

رابعاً : إعادة تشكيل التاريخ ، واختلاق الماضي :

إن الادعاء بجعل الانتماء الديني أساساً لبناء أمة – ومن ثم دولة – "يهودية" هو جوهر الأيديولوجيا الصهيونية منذ البدء . ومن هنا سميت "إسرائيل ". فالدولة المتكونة، وفق ذلك الادعاء، ليست دولة الدين في حد ذاته ، ومن باب أولى : ليست محض دولة للمتدينين ورجال الدين، أو دولة دينية ، وانما هي دولة تستمد حقها التاريخي المزعوم عبر التاريخ من تمثيل كتلة بشرية– مذهبية لم توجد على هذا النحو قط في التاريخ الواقعي، هي كتلة "بني إسرائيل– اليهود"، المتجانسة "النقية " ، والمستمرة عبر الزمن . ولا بأس من أن يضاف إلى ذلك، ولو في مقام معيّن، دعوى دينية معينة : أن فلسطين قد منحت لهم بمقتضى وعد إلهي خاص إلى "شعب الله المختار".

يعاد، إذن، بناء التاريخ وتشكيل الماضي، أو اختلاقه بالأحرى، انطلاقاً من مشروع سياسي عنصري– استعماري، مؤسس على الوهم التاريخي المذكور.

ماذا بعد .. ؟

إن استدعاء الاعتراف العربي والدولي بإسرائيل كدولة للشعب اليهودي هو بمثابة استدعاء لنهاية "القضية الفلسطينية" من الجذور، وإعادة إحياء تاريخي لـ "المسألة اليهودية" في نسختها الأوروبية، ولحلها الصهيوني أو اليهودي– السياسي، العنصري– الاستعماري، في جوهره الحقيقي .

.. وذلك ما لم يحلم به أولئك الذين قاموا باستصدار "وعد بلفور"، الصادر في اليوم الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩١٧، داعياً إلى تأسيس "موطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين " بالذات. ولقد كان، إذن، وعداً بـ "موطن " Home أو " بيت "، وليس وعداً بـ "وطن " Nation ، وليس وعداً بدولة ، من باب أولى .

.. بل، وهذا ما لم يحلم به أيضاً مؤسس الحركة الصهيونية ثيودور هرتزل الذي عنون كتابه الشهير باللغة الألمانية الصادر عام ١٨٩٦: دولة اليهود : مقترح بحل حديث للمسألة اليهودية ، أي كمجرد دعوة إلى " دولة يهودية " لحل " المشكلة اليهودية " في أوروبا .

.. فمن منا، إذن، نحن العرب عامة، والفلسطينيين خاصة، في ضوء كل ما سبق، يمكن أن يعترف بإسرائيل كدولة أو وطن للشعب اليهودي؟

قامت الدائرة الثقافية بتلخيص بعض العناوين حول **"اليهود واليهودية والصهيونية "** كما وردت في " الموسوعة اليهودية – الجزء السادس " تأليف المفكر الراحل عبد الوهاب المسيري – الطبعة الأولى – القاهرة – ١٩٩٨ ، ونورد فيما يلي أبرز ما تضمنته تلك العناوين من أفكار :

١- **الصهيونية بالمعنى الديني :** تشير كلمة "صهيون" في التراث الديني اليهودي إلى جبل صهيون والقدس ، بل إلى الأرض المقدسة ككل، ويشير اليهود إلى أنفسهم باعتبارهم "بنت صهيون" . كما تستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود كجماعة دينية. والواقع أن العودة إلى صهيون فكرة محورية في النسق الديني اليهودي، إذ أن أتباع هذه العقيدة يؤمنون بان الماشيح المخلص سيأتي في آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض – العاصمة) ويحكم العالم فيسود العدل والرخاء .

٢- **الصهيونية المسيحية :** يطلق هذا المصطلح على نظرة محددة لليهود ظهرت في أوروبا (وخصوصاً في الأوساط البروتستانتية في إنجلترا ابتداءً من أواخر القرن السادس عشر) وترى أن اليهود ليسوا جزءاً عضوياً من التشكيل الحضاري الغربي ، لهم ما لبقية المواطنين وعليهم ما عليهم، وإنما تنظر إليهم باعتبارهم شعباً عضوياً مختاراً وطنه المقدس في فلسطين ولذا يجب أن يهجر إليه . ويطلق على هذه النزعة اسم "الصهيونية المسيحية" ، وهي تمارس في الولايات المتحدة الآن بعثاً جديداً وخصوصاً في بعض الأوساط البروتستانتية .

٣- مع تزايد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية، ظهرت نزعات ومفاهيم صهيونية في أوساط الفلاسفة والمفكرين السياسيين والأدباء ، تنادي بإعادة توطين اليهود في فلسطين ... ويطلق على هذا الضرب من الصهيونية "صهيونية غير اليهود" أو "صهيونية الأغيار".

٤- يلاحظ حتى الآن أن مصطلح "صهيونية" نفسه لم يكن قد تم سكه بعد، ولكن مع تبلور الهجمة الإمبريالية الغربية على الشرق ، ومع تبلور الفكر المعادي لليهود في الغرب ، ومع تصاعد معدلات العلمنة بدأ مفهوم الصهيونية نفسه في التبلور والتخلص من كثير من أبعاده الغيبية الدينية أو الرومانسية وانتقل إلى عالم السياسة والمنفعة المادية ومصالح الدول .

٥- ليس من الغريب إذن أن نجد أن نابليون بونابرت أول غاز غربي للشرق الإسلامي في العصر الحديث وواحد من أهم المعادين لليهود في العالم الغربي ، وواحد من أهم دعاة العلمانية الشاملة هو أيضاً صاحب أول مشروع صهيوني حقيقي ، إذ دعا الصهاينة إلى الاستيطان في "بلاد أجدادهم" !

٦- أصبح مفهوم الصهيونية مفهوماً أساسياً في الخطاب السياسي الغربي عام ١٨٤١ مع نجاح أوربا في بلورة مشروعها الاستعماري ضد العالم العربي والإسلامي الذي حقق أول نجاح حقيقي له في القضاء على مشروع محمد علي في تحديث مصر والدولة العثمانية .

٧- تمت بلورة المفاهيم الصهيونية وملامح المشروع الصهيوني بشكل كامل في الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر وعام ١٨٨٠ على يد المفكرين الصهاينة غير اليهود لورد شافتسبري ولورانس أوليفانت . وقد لخص شافتسبري التعريف الغربي لمفهوم الصهيونية في (عبارة أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض) .

٨- يلاحظ أننا نضع تاريخ تطور مفهوم الصهيونية في سياق التاريخ الفكري والسياسي والعسكري الغربي ، فحتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لم يكن يربط اليهود أو اليهودية علاقة كبيرة بالصهيونية كفكرة أو مفهوم أو مشروع سياسي واقتصادي عسكري. وقد كان هذا هو الرأي السائد في الاوساط الصهيونية حتى عهد قريب. فأول تاريخ رسمي للصهيونية ، كتب بتكليف من المنظمة الصهيونية وكتبه ناحوم سوكولوف .

٩- بدأت النزعات الصهيونية تظهر بين اليهود أنفسهم في أواخر القرن التاسع عشر مع تفاقم المسألة اليهودية، وعبرت عن نفسها في بادئ الامر عن طريق المساعدات التي كان أثرياء اليهود في الغرب يدفعونها للجمعيات التوطينية المختلفة التي كانت تهدف إلى توطين يهود شرق أوربا في أي بلد (ويشمل ذلك فلسطين) حتى لا يهاجروا إلى غربها فيعرضوا مكانتهم الاجتماعية وأوضاعهم الطبقية للخطر .

١٠- عبرت النزعة الصهيونية في شرق أوروبا عن نفسها من خلال جماعات (أحباء صهيون) التي حاولت التسلل إلى فلسطين للاستيطان فيها .

١١- نحت المصطلح نفسه المفكر اليهودي النمساوي "نيثان بيرنباوم" في أبريل ١٨٩٠ في مجلة "الانعتاق الذاتي" وشرح معناه في خطاب بتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٩١ قال فيه إن الصهيونية هي إقامة منظمة تضم الحزب القومي السياسي بالإضافة إلى الحزب ذي التوجه العلمي (أحباء صهيون) الموجود حالياً . وفي مجال آخر (في المؤتمر الصهيوني الأول "١٨٩٧") صرح بيرنباوم بان الصهيونية ترى أن القومية والعرق والشعب شيء واحد ، وهكذا أعاد بيرنباوم تعريف دلالة مصطلح "الشعب اليهودي" الذي كان يشير فيما مضى إلى جماعة دينية إثنية ، فأصبح يشير إلى جماعة عرقية (بالمعنى السائد في ذلك الوقت) ، وتم استبعاد الجانب الديني منه تماماً . وأصبحت الصهيونية الدعوة القومية اليهودية التي جعلت السمات العرقية اليهودية (ثم السمات الإثنية في مرحلة لاحقة) قيمة نهائية مطلقة بدلاً من الدين اليهودي، وخلصت اليهودية من المعتقدات المشيحانية والعناصر العجائبية الأخروية .

وبعد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) في بازل ، تحدد المصطلح وأصبح يشير إلى الدعوة التي تبشر بها المنظمة الصهيونية وإلى الجهود التي تبذلها، وأصبح الصهيوني هو من يؤمن ببرنامج "بازل".

١٢- بعد ذلك ، بدأت دلالات الكلمة تتفرع وتتشعب ، فهناك "صهيونية سياسية" وأخرى "عملية"، وتبعتها "الصهيونية التوفيقية" وكل صهيونية لها توجهها وأسلوبها الخاص وإن كانت جميعاً لا تختلف في الهدف النهائي.

١٣- تبلور المفهوم الغربي للصهيونية تماماً في وعد بلفور الذي منح "للشعب اليهودي" والذي أشار للعرب باعتبارهم الجماعات غير اليهودية ، أي أن اليهود أصبحوا شعباً بلا أرض وفلسطين أصبحت أرضاً بلا شعب .

١٤- ثم ظهرت بعد ذلك " الصهيونية الثقافية " و " الدينية" التي أضافت إلى الصهيونية البعد الإثني (الديني والعلماني).

١٥- ثم ظهرت " الصهيونية الديمقراطية" و " الصهيونية العمالية " و "الصهيونية التصحيحية" و "الصهيونية الراديكالية " .

١٦- وبعد عام ١٩٤٨ ، ظهرت " صهيونية الدياسبورا.

١٧- ويشبه "يوري أفنيري" الصهيونية بالبيوريتانية (بالانجليزية : بيوريتانيزم Puritanism) في أمريكا، فهي أيديولوجيا الأصول التي أدت إلى ظهور المجتمع الأمريكي ، ولكنها ماتت ولم تعد لها فعالية في هذا المجتمع . ويرى الكاتب الإسرائيلي "بوعز إفرون" أن على الإسرائيلي في علاقته بالصهيونية أن يكون مثل الأمريكي في علاقته بالبيوريتانية . وبذا، تصبح الدوافع الأيديولوجية أو الاقتصادية التي دفعت الرواد الأوائل (الصهاينة أو البيوريتان) إلى الاستيطان (في فلسطين أو الولايات المتحدة) موضوعاً ذا أهمية تاريخية او أكاديمية محضة، وليس موضوعاً أساسياً .

ويتحدث الكاتب الإسرائيلي "أبراهام يهوشاوا" عن الصهيونية بوصفها حركة إنقاذ عملية ظهرت حلاً للمأزق اليهودي منذ قرن، وهو يعتقد أن العملية قد وصلت إلى نهايتها، أي أن الصهيونية كانت ولم تعد .

١٨- وهناك مصطلح " الصهيونية الجغرافية" الذي ورد في رسالة بعث بها يوسف ضياء الدين الخالدي رئيس بلدية القدس إلى حاخام فرنسا الأكبر صادوق كاهن ، يُذكِّره بان فلسطين جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية ويتنبأ بقيام حركة شعبية ضد الصهيونية فيما لو استمرت الحال على ما هي عليه ، ولذا فقد نصح الصهاينة بالتخلي عن " الصهيونية الجغرافية " ، أي الربط بين صهيون وفلسطين وبضرورة البحث عن أرض أو بلاد أخرى . هذا المصطلح يفصل بين الصهيونية وبين أية ديباجات دينية أو علمانية ، ويبين أن المستهدف هو الأرض الفلسطينية . كما

ان التركيز على عنصر الجغرافيا يبين أن عنصر التاريخ الحي قد استبعد ، ولذا فقد أشار الخالدي في خطابه إلى أن فلسطين هي بلاد اليهود " تاريخياً " ، ولكنه تاريخ متحفي بائد ، إذ أن فلسطين أصبحت الآن جزءاً من التاريخ العربي الإسلامي .

١٩– وفي الوقت الحاضر ، فإن كلمة " صهيونية " تعني في العالم العربي " الاستعماري الاستيطاني الإحلالي في فلسطين الذي ترسخ بدعم من الغرب". وتحمل الكلمة إيحاءات دينية لدى كثير من العرب المسلمين أو المسيحيين الذين يرون أن الصراع العربي / الإسرائيلي صراع ديني .

٢٠– لا تحمل الكلمة أي معنى ديني في بلاد العالم الثالث ، ولا تشارك شعوب العالم الثالث في الديباجات الصهيونية المختلفة عن " حق" اليهود ، وتحمل الكلمة تقريباً الدلالات نفسها التي تحملها في العالم العربي .

٢١– وحتى نبين مدى خلل المجال الدلالي ، يمكن أن نشير إلى أن الصهيونية حركة عنصرية حسب أحد قرارات هيئة الأمم وأنها ليست كذلك حسب قرارات أخرى .

٢٢– يلاحظ أن أزمة الصهيونية عبرت عن نفسها من خلال عدد لا ينتهي من المصطلحات.

ويمكن اشتقاق فعل من كلمة " صهيونية " فنقول "صَهْيَنَ " (الإنجليزية : زايونايز zionize) ويستخدم المصدر من هذا الفعل عادة بشكل شبه مجازي فيقال "صهينة يهود العالم" بمعنى أن تسيطر العقيدة الصهيونية على بعض جوانب وجودهم لا كلها ، ويقال "صهينة اليهودية" بمعنى أن الرؤية الصهيونية للكون تصبح هي القيمة الحاكمة داخل النسق الديني اليهودي. وصهينة اليهود واليهودية هي الشكل الخاص الذي تتخذه عملية علمنتها.

لم تظهر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كاملة بين يوم وليلة ، وإنما ظهرت بالتدريج، وكان يضاف لكل مرحلة عنصر جديد إلى أن اكتملت مع صدور وعد بلفور وتحولت إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة .

والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة محايدة تماماً ، فهي صيغة علمانية نفعية مادية تماماً، رغم كل ما قد يحيط بها من ديباجات مسيحية أو رومانسية ، فهي ترى اليهود ، في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير ، باعتبارهم مادة نافعة لا قداسة لها . وهي تنظر لوجود اليهود في العالم الغربي نظرة سلبية لابد من وضع نهاية له . ولذا ، فهي صيغة تدعو اليهود إلى إنهاء السلبية الدينية والعودة المادية العلمانية إلى فلسطين دون انتظار أي أمر إلهي (الأمر الذي يتنافى مع العقيدة المسيحية الكاثوليكية واليهودية الأرثودكسية).

ويلاحظ انه في الوقت الحاضر بعد أن استقرت أوضاع الجماعات اليهودية في الغرب، وبعد دمجهم وتناقص أعدادهم أصبحت العناصر الأخيرة في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة هي

العنصر الأساسي (دولة وظيفية يدعمها الغرب ويضمن بقاءها وتقوم هي على خدمته وعلى تجنيد يهود العالم وراءها لخدمتها وخدمة العالم الغربي) . وأصبح هذا هو أساس الإجماع الصهيوني .

وقد تنبه كثير من المفكرين الصهاينة إلى وجود الصيغة الشاملة المهودة أو اليهودية من وجهة نظرهم ، فيشير "حاييم لانداو" ، على سبيل المثال ، إلى أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة ثابتة واحدة " وكل القيم الأخرى إن هي إلا أداة في يد المطلق" ، ثم يحدد هذا المطلق على أنه " الأمة" .

وقد وافقه "موشيه ليلينبلوم" ، وكان ملحداً ، على قوله هذا : " إن الامة كلها أعز علينا من كل التقسيمات المتصلبة المتعلقة بالأمور الأرثوذكسية أو الليبرالية في الدين فلا مؤمنين وكفار، فإن الجميع أبناء ابراهيم وإسحق ويعقوب... لأننا كلنا مقدسون سواء كنا غير مؤمنين أو كنا أرثوذكسيين " . والمعنى أن الشعب كله هو مركز الحلول ، تجري في عروقه هذه القداسة بشكل متوارث .

القومية اليهودية

Jewish Nationalism

"القومية اليهودية " عبارة مرادفة لمصطلح "الصهيونية" وهي تفترض أن اليهود يشكلون جماعة قومية أو شعباً يهودياً . فالنسق الديني اليهودي، من حيث هو تركيب جيولوجي ، يحوي داخله تياراً قومياً قوياً جداً يرتبط ارتباطاً تاماً بالبنية الحلولية ، إذ يرى اليهود أنفسهم كياناً دينياً متماسكاً يسمى "بنو يسرائل" يتمتع بعلاقة خاصة مع الإله الذي يحل فيهم ويمنحهم درجة عالية من القداسة ويتولى قيادتهم وتوجيه تاريخهم القومي المقدس باعتبارهم شعبه المختار .

ولذا ، فإن اليهودية ، من هذا المنظور ، قومية دينية ، وهي بذلك لا تختلف كثيراً عن الأديان الوثنية الحلولية حيث يقتصر الدين والإله على شعب واحد دون غيره من الشعوب.

اليهودية ، إذن ، من هذا المنظور ، هي دين قومي عرقي ، أو قومية دينية مقدسة تمزج الوجود التاريخي المتعين والتصور الديني المثالي . ولذا فاليهودية لا تفرق بين الإله والتاريخ أو بين الأرض والسماء .

هذا من ناحية الرؤية . **أما من ناحية الواقع التاريخي المتعين ، فنحن نرى أنه لا توجد قومية يهودية أو شعب يهودي وإنما جماعات يهودية منتشرة في العالم تحكمت في صياغتها حركيتان أساسيتان متكاملتان :**

١. **فالجماعات اليهودية لم تكن قط تشكل كتلة بشرية متماسكة تتبع مركزاً ثقافياً أو دينياً واحداً يحدد معايير مثالية أو واقعية يصوغ أعضاء هذه الجماعات رؤيتهم لأنفسهم وأسلوب حياتهم تبعاً لها، بل لم يكن لديهم ميراث ثقافي او ديني واحد . فالجماعات اليهودية كانت منتشرة في كثير من بقاع الأرض داخل معظم التشكيلات الحضارية المعروفة وداخل البنى التاريخية والقومية المختلفة . فاليهودي في الأندلس كان عربياً ، واليهودي في روسيا كان**

روسياً ، وفي اليمن كان يمنياً ، وهو امريكي في الولايات المتحدة ، وقد أدى هذا إلى تحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى تركيب جيولوجي غير متجانس.

٢. وقد كان معظم الجماعات اليهودية يشكلون جماعات وظيفية ، وهي جماعات تحافظ على عزلتها وانفصالها ، فهي ، إذن ذات سمات إثنية خاصة تميز كل واحدة منها عن أعضاء الاغلبية في المجتمعات التي يعيش اليهود بين ظهرانيها.

فاليديشية الجرمانية كانت تعزل أعضاء الجماعة اليهودية عن محيطهم الثقافي السلافي في بولندا . ولكنها ، مع هذا ، لم تكن لها أية علاقة باللادينو (اللاتينية) التي كانت تعزل يهود السفارد عن محيطهم العربي الإسلامي في الدولة العثمانية . أما العبرية (وهي اللغة الوحيدة المشتركة) ، فقد ظلت من ناحية الأساس لغة الصلاة واللغة التي كتبت بها النصوص الدينية وحسب .

وعلى كلٍّ ، لم تكن الرابطة الدينية بمعزل عن الوظيفة الاقتصادية أو الاجتماعية تماماً إذ أن الجماعة الوظيفية تضرب حول نفسها العزلة ويساعدها في ذلك المجتمع المضيف ، وتعد العقائد الحلولية من أهم آليات العزلة .

لكن المجتمع الغربي استغنى عن الجماعات الوظيفية ، وأخذ في تصفيتها بعدة طرق منها مساعدة أعضاء هذه الجماعات (ومن هؤلاء اليهود) على التخلص من خصوصيتهم الإثنية ، وفي دمجهم في المجتمع أو تشجيعهم على الاندماج . واستجابة لذلك ، ظهرت حركة التنوير وحركة اليهودية الإصلاحية اللتان قامتا بتعريف ما يسمى " الهوية اليهودية" تعريفاً دينياً .

وقد عارضت الصهيونية هاتين الحركتين ، وراحت تعمل على تحويل كل من الإحساس بالانتماء الديني إلى جماعة دينية واحدة والارتباط العاطفي بأرض الميعاد إلى شعور قومي وبرنامج سياسي .

فبعد أن كانت كلمة "شعب" تعني أن اليهود جماعة دينية قومية، أصبحت الكلمة في المعجم الصهيوني تعني " الشعب " بالمعنى القومي والعرقي الذي كان سائداً في أوروبا في القرن التاسع عشر.

وقد تعمقت هذه الفكرة في كتابات دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين نادوا بأن الانتماء القومي لليهود يستند إلى ما يسمى " التاريخ اليهودي " و "التراث اليهودي " ، وما العقيدة اليهودية سوى جزء عضوي من هذا التراث .

وقد انطلق المشروع الصهيوني من هذا الافتراض ، وأسست الدولة الصهيونية تحقيقاً لفكرة القومية اليهودية . ولكن من الواضح أن القومية اليهودية هي رؤية غير واقعية وبرنامج إصلاحي ليس له ما يسنده في الواقع التاريخي ، فقد كان اليهود في القرن التاسع عشر، خليطاً هائلاً غير

متجانس : بينهم يهود اليديشية من الاشكناز ، ويهود العالم العربي، ويهود العالم الإسلامي من السفارد ، واليهود المستعربة ، كما كان هناك القراءون والحاخاميون الذين انقسموا بدورهم إلى أرثوذكس ومحافظين وإصلاحيين.

وقد أطلق الصهاينة على كل هؤلاء اسم " الشعب الواحد" حسب تعبير "هرتزل" ، ونجحوا في تهجير نسبة مئوية محدودة وحسب إلى إسرائيل. بل إن الهجرة في كثير من الأحيان ، لم تكن تتم لأسباب قومية وإنما لأسباب نفعية محضة . ومن هنا ، فإن الهجرة اليهودية ما زالت متجهة إلى الولايات المتحدة من ناحية الأساس . وهكذا ، فإننا نجد أن أغلبية أتباع القومية اليهودية لا يزالون في المنفى يرفضون العودة إلى "وطنهم القومي" .

ويتضح زيف مقولة " القومية اليهودية" في فشل الدولة اليهودية في تعريف اليهودي، أي في تعريف ما يسمى " الهوية اليهودية " . وحينما يهاجر أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة إلى أمريكا اللاتينية ، فإنهم يكتشفون عدم تجانسهم ، إذ أن اليهودي الألماني يكتشف أن الصفات الإثنية المشتركة بينه وبين المهاجر الألماني غير اليهودي أكثر من السمات المشتركة بينه وبين أعضاء الجماعات اليهودية الآخرين .

وتحاول الدولة الصهيونية بذل محاولات جاهدة لدمج المهاجرين الوافدين إليها . ولكن ، مع هذا ، يتضح عدم تجانسهم في انقسامهم الحاد . وحتى لو قدر النجاح لمحاولة إسرائيل مزج أعضاء الجماعات اليهودية ، فإن ثمرة هذه المحاولة لن تكون " الشعب اليهودي " وتحقيق " القومية اليهودية " وإنما ستكون كياناً جديداً يمكن تسميته "الشعب الإسرائيلي" و "القومية الإسرائيلية " .

ويرفض كثير من المفكرين اليهود ، وكذلك التنظيمات اليهودية ، فكرة القومية اليهودية، إما من منظور ديني او من منظور ليبرالي أو اشتراكي ، فيرون أن اليهود ليسوا شعباً وإنما أقلية دينية، كما يرون أنهم ينتمون إلى الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها .

وفي بطاقة تحقيق الشخصية عند الإسرائيليين ، توجد ثلاثة بنود : المواطنة ، والدين ، والقومية . فجميع المواطنين "إسرائيليون " ومن ذلك العرب . أما الدين ، فيختلف فيه مواطن عن آخر ، فهو الإسلام بالنسبة إلى المسلمين ، والمسيحية بالنسبة إلى المسيحيين ، واليهودية بالنسبة إلى اليهود . أما القومية ، فهي عربية عند العرب، وبالنسبة إلى الإسرائيليين اليهود فلابد أن تكون القومية هي "اليهودية " ، إذ لابد أن يتفق بندا الدين والقومية (في حالة اليهود) حسب الرؤية الصهيونية .

الدولة اليهودية

The Jewish State

" الدولة اليهودية " اصطلاح مرادف لمصطلح "الدولة الصهيونية " .

ونحن نفضل المصطلح الأخير لدقته إذ يفترض المصطلح الأول أن دولة إسرائيل هي استمرار للمملكة العبرانية المتحدة التي يشار إليها بـ"الكومنولث الأول" . كما أن الاصطلاح يفترض وحدة اليهود في العالم ، وأن هذه الدولة دولتهم التي تعبر عن إرادتهم وتطلعاتهم ، وهذا أبعد ما يكون عن الصحة إذ لا تزال "دولة إسرائيل" هي دولة ٤٢% من يهود العالم.

وعلاوة على كل هذا ، يفترض المصطلح أيضاً يهودية هذه الدولة ، وهذا أمر محل نقاش حتى في إسرائيل نفسها . فالدولة الصهيونية لا ترتبط بأية قيم أخلاقية يهودية ، بل تسلك حسبما تملي عليها مصلحتها العملية . ولعل إيمانها بمصلحتها العملية هو الذي جعلها تحول نفسها إلى ثكنات عسكرية يصعب وصفها باليهودية .

ويلاحظ أن سكان إسرائيل من "الصابرا" لا يشعرون بالانتماء اليهودي ، بل إن بعضهم يكن الاحتقار ليهود العالم (الدياسبورا) الهامشيين . ولعله أمر طريف حقاً أن هذه الدولة التي تصف نفسها باليهودية لم تصل بعد إلى تعريف لليهودي .

ولذا ، يظل مصطلح "الدولة الصهيونية " أكثر دقة وتحديداً في وصف الكيان الصهيوني، فهو يؤكد استيطانية الكيان القائم الآن في الشرق العربي وطموحاته الإحلالية ، ويفصله عن أية تصورات دينية أو عاطفية .

بعض الاختلافات الصهيونية بشان الدولة الصهيونية

"الدولة الصهيونية" مفهوم صهيوني محوري . والمشروع الصهيوني ، في أهم صوره ، يرى أن الحل الوحيد للمسألة اليهودية هو إنشاء "دولة يهودية ذات سيادة" (شعار المؤتمر الصهيوني الأول "١٨٩٧" .

ويلاحظ أن ثمة ترادفاً في الخطاب الصهيوني بين عبارتي " الدولة الصهيونية" و "الدولة اليهودية". وقد أصبحت الصيغة الصهيونية الأساسية صيغة أساسية شاملة بعد أن تم تحديد الدولة الصهيونية إطاراً لعملية التوظيف .

وقد قام هرتزل بصياغة المفهوم والعقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية الذي تتعهد بمقتضاه الحضارة الغربية بأن تقوم بنقل اليهود إلى فلسطين وتأسيس دولة وظيفية لهم فيها .

ومع صدور وعد بلفور ، يستقر المفهوم تماماً وتتحدد ملامحه وآليات تطبيقه .

ومع هذا بدأت الدعوة لإنشاء الدولة قبل هذا التاريخ بين الصهاينة غير اليهود من المفكرين والزعماء أصحاب المطامع الاستعمارية في الشرق. وكانت هذه الدعوة غريبة على الجماهير اليهودية

وعلى المفكرين اليهود، لأنهم كانوا إما متدينين ينتظرون مقدم الماشيح المخلِّص ليعود بهم ليؤسس هو الدولة (دون أي تدخل بشري) ، أو علمانيين يدافعون عن الاندماج في أوطانهم .

وقد طرح المفكر الصهيوني "موسى هس" الفكرة في منتصف القرن التاسع عشر في كتابه ذي الطابع الاستعماري الواضح "روما والقدس " .

وقد عالج "ليوبنسكر" الفكرة نفسها في كتابه "الانعتاق الذاتي" ، غير أن فكره ظل مقصوراً على بعض قطاعات المثقفين في شرق أوروبا ، ثم تعرض "هرتزل" للموضوع نفسه في كتابه "دولة اليهود" وجعلها فكرة أساسية .

وقد أدرك هرتزل حتمية الاعتماد على الإمبريالية كآلية لتحقيق المشروع الصهيوني ، وضرورة أن تكون الدولة الصهيونية دولة وظيفية تابعة تستند شرعيتها إلى الوظيفة التي تضطلع بها وتحصل الدعم الاستعماري بسببها .

وقد أصبحت الدولة بعد مرحلة هرتزل وبلفور جزءاً من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة . وكما هو الحال عادةً ، نجد أن الإجماع الصهيوني لا ينصرف إلا إلى هذه الصيغة الأساسية الشاملة ، أما ما عدا ذلك فهو موضع خلاف وصراع (دون قتال) بسبب الطبيعة المراوغة للخطاب الصهيوني .

وقد واجهت الفكرة معارضة من اليهود الإصلاحيين ، وبعض اليهود الأرثوذكس ودعاة القومية اليديشية ، وحزب البوند والاشتراكيين ، وذلك لأسباب مختلفة .

ولم يكتب للفكرة أن تتحقق إلا حينما تبنت الدول الإمبريالية المشروع الصهيوني ثم فرضت التجمع الاستيطاني على الواقع العربي.

والفكر الصهيوني يشبه في بنيته بنية العقائد العلمانية الشاملة في التشكيل الحضاري الغربي الحديث . فمع تزايد معدلات العلمنة ، تزايدت أهمية الدولة حتى أصبحت الركيزة الأساسية للمجتمع ومصدر تماسكه الوحيد (بدلاً من القيم الدينية) ، ثم أصبحت الدولة المطلق موضع التقديس الذي يحل محل الكنيسة والإله وأصبحت مصلحة الدولة العليا الإطار المرجعي للمنظومة القيمية. ومع ظهور القومية العضوية ، أصبحت الدولة الإطار الذي يعبر الشعب العضوي من خلاله عن ذاته ويحقق تماسكه العضوي . ثم يصل هذا التيار إلى ذروته مع الفكر الهيجلي إذ لم تعد الدولة الأداة التي تتوسل بها " الفكرة المطلقة " لتحقيق ذاتها ، بل أصبحت تجسد الفكرة المطلقة في التاريخ .

والفكر الصهيوني لا يختلف ، إلا في التفاصيل ، عن الفكر الغربي ، فالدولة اليهودية هي الإطار الذي سيعبر الشعب العضوي المنبوذ (أي المادة البشرية التي سيتم نقلها) عن هويته من خلاله.

وتكتسب الدولة في الفكر الصهيوني دلالة أخرى هي فكرة الدولة الراعية الغربية . فقد أدرك الصهاينة من اليهود في مرحلة هرتزل أنهم لن يتأتى لهم تحقيق مشروعهم القومي إلا من داخل مشروع استعماري غربي. ومن هنا كان البحث عن دولة غربية عظمى تقوم بعملية نقل اليهود وتوطينهم وتأمين موطئ قدم لهم والدفاع عنهم ضد السكان الأصليين .

وبالتدريج ، اكتسبت الدولة اليهودية أبعاداً دينية مطلقة وأصبحت هي آلية تحقق الحلم المشيحاني بل مركز الحلول . وبعد إعلان الدولة الصهيونية بدأ كثير من اليهود ينظرون إليها باعتبارها الكنيس المركزي وإلى رئيس وزرائها باعتباره الحاخام الأعظم .

وقد نشأت عدة صراعات بين الصهاينة حول عدة قضايا نوجزها فيما يلي :

١– **موقع الدولة :** دارت أولى الصراعات حول موقع الدولة ، وهو صراع دار بين الاستيطانيين والتوطينيين (قبل مرحلة هرتزل وبلفور).

فالتوطينيون الذين كان همهم التخلص من اليهود كانوا في عجلة من أمرهم ، ولذا كانوا على استعداد " لأن يلقوا باليهود في أي مكان " (عبارة نوردو وجابوتنسكي) سواء في فلسطين أو خارجها . ومن هنا المشاريع الصهيونية المختلفة (العريش – شرق أفريقيا – الأحساء – ليبيا – مدغشقر ... إلخ). وقد حسم الأمر بعد بلفور فوضعت فلسطين تحت الانتداب ودخلت الفلك الاستعماري وتقرر تحويلها إلى مكان لتوطين اليهود ومن ثم توقف الحديث عن موقع الدولة .

٢– **آليات إنشاء الدولة :** يختلف الصهاينة فيما بينهم حول أسلوب إنشاء الدولة، إذ تصور التسلليون أن بإمكانهم الاستيطان دون مساعدة الإمبريالية الغربية وقد اختفى هذا التيار مع تأسيس المنظمة الصهيونية .

ولكن حتى بعد تأسيس المنظمة وقبول المظلة الإمبريالية اختلف الصهاينة فيما بينهم . فدعاة الصهيونية الدبلوماسية (الاستعمارية) كانوا يرون أن الطريق الأسلم هو التفاوض مع القوى الاستعمارية والتأكد من ضمانها للدولة. اما دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية ، فقد كانوا يرون ضرورة اتباع أسلوب العمل الثقافي البطيء بين جماهير اليهود في العالم وفي فلسطين.

أما الصهاينة العماليون الاستيطانيون ، فكانوا يرون أن خير وسيلة هي خلق الحقائق الاستيطانية في فلسطين . وكان بعض التصحيحيين (التوطينيين) ممن ضاقوا ذرعاً بالوجود اليهودي في المنفى يجدون أن خير وسيلة هي التحالف الفوري مع القوى الإمبريالية وفرض أغلبية يهودية على الفلسطينيين بالقوة العسكرية لإنشاء وطن يهودي على ضفتي نهر الأردن. وكان جوزيف ترومبلدور يحلم باختزال كل المسافات الزمانية والمكانية بتكوين جيش يهودي جرار قوامه ١٠٠ألف يهودي يقتحم فلسطين ويستوطن فيها ، لكنه لم يتمكن من تحقيق حلمه العسكري الضخم الأول ، ولا تزال الإشكالية تعبر عن نفسها وإن أصبحت تنصرف إلى آليات إدارة الدولة وإلى كيفية التعامل مع العرب .

٣– **حدود الدولة :**

ظهر خلاف بين الصهاينة حول حدود الدولة . وهذا يعود إلى عدة أسباب، من بينها ان "إرتس إسرائيل" ليست ذات حدود معروفة ، كما أن الدولة العبرانية القديمة لم تكن لها حدود

مستقرة وكان هناك من الصهاينة من يدرك أهمية الموازنات الدولية ويقنع بحدود تتفق مع قرار الدولة الراعية. ولكن كان هناك أيضاً من لا يدرك هذه الموازنات ويظل يدور في إطار الرؤى الحلولية الدينية والتاريخية القديمة وأحلام النيل والفرات .

وبعد إنشاء الدولة ، لم تحسم المسألة قط . فهناك من يحاول ربط حدود الدولة بالكثافة البشرية اليهودية.

ومع تصاعد الأزمة السكانية الاستيطانية ظهر دعاة ما يسمى " الصهيونية السوسيولوجية" أو "الصهيونية السكانية" المهتمون بالطابع اليهودي للدولة، وهم يطالبون بحد أدنى على عكس دعاة ما يسمى " الصهيونية العضوية الحلولية" و "صهيونية الأراضي" ، فهؤلاء يصرون على الحد الأقصى .

وتعبر الإشكالية عن نفسها في الوقت الحاضر من خلال الحديث عن الحدود الآمنة للدولة ، إذ تتغير الرؤية للحدود بتغير الرؤية لأمن الدولة ومقوماته .

٤– التوجه الأيديولوجي للدولة :

لم تتعرض الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة بعد بلفور للتوجه الأيديولوجي للدولة، إذ يبدو أن الصهاينة التوطينيين كانوا واعين بحقائق الموقف في فلسطين ، وبصعوبات الاستيطان.

كما لم يكن توجه الدولة الصهيونية يعنيهم من قريب أو بعيد مادامت تؤدي الأغراض المطلوبة منها ، مثل إبعاد يهود شرق أوروبا عنهم ، والقيام بدور المدافع عن المصالح الإمبريالية . ولذلك ، فإنهم لم يمانعوا قط في تأييد بعض الأفكار والممارسات الصهيونية التي ترتدي زياً اشتراكياً .

ولعل الصيغة المراوغة التي توصلت إليها المنظمة الصهيونية العالمية بشأن الاستيطان كانت محاولة للتوفيق بين كل الصهاينة والجمع بينهم وراء الحد الأدنى الصهيوني، فقد تحدد هدف الحركة الصهيونية في الحصول على أراض في فلسطين كي تكون ملكاً للشعب اليهودي ولا يمكن التفريط فيها .

فالهدف هنا لم يحدد شكل الدولة الصهيونية ، ولا شكل ملكية الأرض ، ولا المثل الاجتماعية أو العقائدية الظاهرة أو الكامنة ، وإنما تحدث فقط عن الحصول على أرض فلسطين كي تكون ملكاً للشعب اليهودي بشكل مبهم ومجرد . ولهذا ، يصعب الحديث عن يمين أو يسار داخل الحركة الصهيونية ، فمن الناحية البنيوية يتفق الجميع على الحد الأدنى .

٥– التكوين السكاني للدولة :

نشأ صراع حول التكوين السكاني للدولة ، إذ تنبه بعض الصهاينة منذ البداية إلى أن طبيعة الدولة الصهيونية كدولة إحلالية شاملة ستؤلب السكان الأصليين ضدها وتجعلها تعيش في صراع دائم، ومن ثم ظهرت فكرة الدولة ثنائية القومية التي دعا إليها "بوبر" و "ماجنيس"

وجماعة "إيحود وحزب المابام". ولكن معظم الصهاينة أصروا على الطبيعة الإحلالية الشاملة للدولة الصهيونية . وقد خمد الصراع بين الفريقين ولكنه عاد إلى الظهور في أشكال أخرى ، من بينها الصراع بين دعاة الصهيونية السوسيولوجية ودعاة صهيونية الأراضي .

٦– نطاق سيادة الدولة :

طرح سؤال بشأن نطاق سيادة الدولة الصهيونية : هل هي دولة الشعب اليهودي بأسره، داخل حدودها وخارجها ، أم أنها دولة المستوطنين الصهاينة .

تم إعلان قيام الدولة عن طريق مجلس قومي يتحدث باسم كل اليهود ، سواء في فلسطين أو في خارجها .

وقد أصدرت الدولة الصهيونية قوانين كثيرة، وأقامت هيئات مختلفة بهدف ترجمة مفهوم الشعب اليهودي إلى واقع قائم . ومن أهم هذه القوانين قانون العودة الذي يمنح جميع اليهود حق مغادرة مسقط رأسهم والعودة إلى "وطنهم القومي".

وتعمل المنظمة الصهيونية العالمية على تكريس الوحدة اليهودية دون أية مراعاة للحدود الوطنية للدولة المختلفة . ويحدد ميثاق المنظمة مهمتها بأنها " لم شمل المنفيين في أرض إسرائيل التاريخية ، وتدعيم وحدة الشعب اليهودي .

لجأت الحركة الصهيونية إلى أسلوب التدرج لتعلن عن حدها الأدنى الصهيوني بسبب الموازنات الدولية ، وبسبب العلاقة المتوترة بين الاستيطانيين ، والتوطينيين ، وبسبب الخوف من السكان المحليين . ويمكننا متابعة هذا التدرج بتأمل قرارات المؤتمرات الصهيونية المختلفة . فإذا ما نظرنا إلى قرارات المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) ، ثم إلى قرارات مؤتمر بلتيمور (١٩٤٢) ، ثم إلى قرارات المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين الذي عقد في القدس (١٩٦٨)، للاحظنا التباين الشاسع ولرأينا كيف أن الحركة صاعدة من الحد الأدنى إلى الحد الأقصى .

فقد صيغت قرارات المؤتمر الأول بشكل لا يزعج الأغيار (المطلوب عونهم في ذلك الوقت) ولا يزعج حكومة سويسرا (التي عقد على أرضها المؤتمر) ولا يزعج يهود الغرب المندمجين (المطلوب دعمهم) ولا ينبه السكان الأصليين (المطلوب تصفيتهم) . ولذلك طلب المؤتمر إقامة "وطن قومي" (وليس دولة) في فلسطين يضمنه "القانون العام" (وليس الاستعمار الغربي ولا العنف أو الإرهاب) . كما دعا المؤتمر إلى تقوية الوعي والعواطف اليهودية وحسب دون أن يؤدي هذا إلى أي ازدواج في الولاء.

ولم تصبح فكرة الدولة الصهيونية الشعار الرسمي للحركة الصهيونية إلا عام ١٩٤٢ في مؤتمر بلتيمور ، غير أن المؤتمرين الصهاينة عبروا في قرارات هذا المؤتمر عن أملهم في انتصار الإنسانية والديمقراطية وما شابه ذلك، كما رحبوا بالتعاون مع العرب والبعث العربي اليهودي المشترك .

أما قرارات المؤتمر السابع والعشرين الذي عقد بعد حرب يونية وبعد " توحيد " القدس على الطريقة الصهيونية وبعد ضم أراض عربية، فقد جعلت حدود الدولة الصهيونية تقترب بعض الشيء من تصوراتهم عن الحدود التاريخية أي المقدسة . ونحن هنا نجد الحلولية العضوية تسفر عن وجهها وأن الأهداف المعلنة قد قطعت شوطاً كبيراً في رحلتها إلى المطلق، فأصبحت أهداف الصهيونية هي وحدة الشعب اليهودي، ومركزية دولة إسرائيل في حياته، وتجميع المنفين من الشعب اليهودي في وطنه التاريخي عن طريق الهجرة من جميع البلاد، وتدعيم دولة إسرائيل القائمة على مُثُل الأنبياء في العدل والسلام، والمحافظة على أصالة الشعب اليهودي بتنمية التعليم اليهودي واللغة العبرية اليهودية والثقافة اليهودية وتقوية التحالف الإستراتيجي مع الحضارة الغربية.

الصهيونية : القيم السياسية

يجتمع في الإطار السياسي النظري للصهيونية نظم أساسية ومختلفة من القيم : اليهودية التي تمت صهينتها ، والعنصرية ، والقومية السياسية ، والقومية العضوية ، والاشتراكية ، والليبرالية ، الأمر الذي يجعل مبدأ "القوة" كأساس للمشروعية السياسية – ولا نقول للشرعية (المبدئية) – المبدأ الأساسي الذي يحكم مدركات التعامل السياسي الإسرائيلي .

ولذا يتحكم هذا المبدأ في الحياة والمستقبل الإسرائيليين تحكماً يتجاوز في مداه وعمقه تأثير طاقات أي من تلك النظم المختلفة من القيم .

ولإيضاح هذا ، يتوجب تحديد ما نعنيه هنا بتلك النظم من القيم ، وبمبدأ القوة كأساس للتعامل السياسي، وذلك في إطار تناولنا الصهيونية باعتبارها تلك العقيدة السياسية التي تدعو يهود العالم للتجمع في فلسطين لتكوين وبناء الدولة الإسرائيلية .

ويكمن القول بأن المنهجية " التلفيقية " هي السمة البارزة في خطاب الصهيونية ، لا ينهض الجانب الدعوي من هذا الخطاب بدونها ، سواء في التعامل مع القوى غير اليهودية ، أو في التعامل مع الجماعات اليهودية نفسها ، أو في بناء فكرها نفسه.

ولبيان ذلك علينا ملاحظة أن أياً من نظم القيم السياسية إنما يتكون ، كغيره من نظم القيم الأخرى، من قيمة جماعية عليا (كالديمقراطية : احتراماً للكرامة الإنسانية ، في نسق قيم الحضارة الغربية الحديثة)، يرتبط بها ويعبر عنها نسق من القيم السياسية الفردية .

ولكن الأمر جد مختلف بالنسبة للصهيونية إذ نجد أنفسنا أمام إطار من القيم تتداخل فيه أنساق من القيم، وليس مجرد مفردات من القيم . وهي بطبيعتها أنساق مختلفة ، غير منسجمة مع بعضها البعض. وهو ما يجعل محاولة تبين سمات نسق قيم الصهيونية عملية صعبة ، بل قد تكون غير ممكنة، ما لم نلحظ السمة التلفيقية فيها بين أنساق من القيم وليس بين مفردات .

وأول تلك الأنساق هي اليهودية التي تمت صهينتها أو الصهيونية ذات الديباجات الدينية اليهودية ، ونعني بها تلك المعتقدات من اليهودية التي توظفها الصهيونية في مشروعها لبناء الدولة الصهيونية .

ولا نقصد بذلك أن هذا التوظيف يتوافر على رؤية معرفية كلية ، على درجة من الثبات المنهجي، تفسر الوجود السياسي ، وتقيم الحركة السياسية ، بصورة منطقية ومتجانسة .

فاليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً عاجزة وعصية تماماً على الانصهار في مثل تلك الرؤية المعرفية المحددة . غير أن هذه السمة الجيولوجية التراكمية نفسها ، بما تشتمل عليه من أنساق وأفكار ومعتقدات ومفاهيم متعددة ومختلفة ومتناقضة ، جعلت من اليسير على الصهيونية أن تختار الإطار المعتقدي أو المنطق القيمي المناسب والمطلوب ، لتقييم كل حركة أو مرحلة سياسية أو تبريرها، والتعامل معها ؛ كما أنها (أي السمة التركيبية الجيولوجية التراكمية) تسمح بتفسير أو تبرير كل حالة سياسية أو حتى الوجود السياسي نفسه ، وذلك كله تبعاً لتغير الإطار – أو حتى الظروف – التاريخي والسياسي والاجتماعي ، أو تبعاً لاختلاف طبيعة التوظيف المعتقدي المطلوب سواء كان دعوياً يتجه إلى تأكيد رابطة الولاء والانتماء اليهودي للكيان الصهيوني، أو دعائياً يرمي إلى كسب التعاطف والتأييد الخارجي (الدولي) بهذا الكيان . ومع أن مثل هذا التوظيف التلفيقي يعمل على صبغ الصهيونية وشحنها بالمفاهيم والأطروحات المتناقضة الأمر الذي يدفعها في النهاية للانفجار والتفتت الفكري، إلا أنه يهيئ لها من جهة أخرى ، وبخاصة في ظل ظروف وتحالفات دولية مواتية ، استمراراً مرحلياً ما دامت تواجه بيئة سياسية واهنة أو مسترخية فكرياً وسياسياً ، كما هو الحال في البيئة الثقافية والسياسية العربية الراهنة ، وذلك بغض النظر عن الطاقات والإمكانات الفكرية والسياسية الكامنة لهذه البيئة (العربية).

أن المعوَّل عليه في نهاية المطاف بالنسبة للصهيونية ، ليس إطاراً معتقدياً معيناً مستمداً من إحدى طبقات التركيب الجيولوجي التراكمي للعقيدة اليهودية ، يتم تبنيه والثبات عليه ، وإنما تفرض كل مرحلة حلاً مؤقتاً كل ما يشترط فيه أن يكفل التميز ، ولكنه تميز لا مضمون له وإنما هو تميز وكفى .

ولذلك ، فحينما يعني التمسك بهوية (صلبة) للتميز (تحدد مثلاً من هو اليهودي ؟) ، فإن التميز من حيث هو اختلاف عن الآخر يصبح مصدر تهديد، ومن ثم يتم العدول عنه ، ويتم تبني تعريف للهوية يسمح بقدر من السيولة. وهي ظاهرة تتبدى في الحيرة والصراع داخل الكيان الصهيوني ، حول الخيارات المستقبلية لمضمون تميزه، وهي قضية وثيقة الصلة بالصراع العربي الصهيوني : القبول بدولة فلسطينية مستقلة في سبيل نقاء الكيان الصهيوني ؟ أم السماح بالوجود العربي داخل إطار الدولة الصهيونية ، في سبيل إسرائيل الكبرى ؟ إن الصراع هنا هو صراع بين الرؤية الصهيونية التقليدية (الحلوية المادية الصلبة) التي تتمسك بمفاهيم مثل إسرائيل الكبرى جغرافياً ، والرؤية الإسرائيلية البرجماتية (الحلوية الشاملة السائلة) التي لا تمانع في التنازل عن هذا المفهوم في سبيل الوصول إلى إسرائيل العظمى اقتصادياً . وهو ما يعكسه توجه اتفاقيات أسلو (١٩٩٣) وما بعدها ، التي تمت بقيادة

تيار فاعل في المؤسسة الإسرائيلية تنبه قبل عقود من هذه الاتفاقيات (وبخاصة عبر شيمون بيريز) إلى عناصر الحيرة والصراع التي تكتنف عملية حسم هوية المشروع الصهيوني. فكانت اتفاقيات أوسلو إيذاناً بتكريس توجه إسرائيل كبرى مختلفة : يعمل ، وذلك بعد أن واتته الفرصة بعد حرب الخليج الثانية (١٩٩١)، على إرساء نظام شرق أوسطي متمركز اقتصادياً حول الكيان الصهيوني ، أي أنه توجه يعمل ، عن وعي وإرادة ، على تمييز الكيان الصهيوني بسطوة سائلة حلولية صهيونية اقتصادية، وذلك على حساب تميزه بهويته الحلولية الصهيونية العنصرية الصلبة .

وباختصار ، فإن المنهجية التلفيقية تهيمن بالضرورة ، على تصور الصهيونية لأسس تبرير مشروعية الوجود الصهيوني السياسي نفسه ، فضلاً عن مبادئ وأسس النظام السياسي والاجتماعي في الكيان الصهيوني ؛ والاصطدام (الكامن دوماً والمتفجر دورياً)، الذي يقع بين هذه المنهجية التلفيقية من جهة ، وبين حقائق الواقع والحقيقة الصلبة من جهة أخرى، لا يقودها إلى إعادة النظر في عناصر رؤيتها المعرفية (اليهودية الحلولية التراكمية) ؛ بل يدفعها (متأثراً طبعاً بحلوليتها اليهودية التراكمية هذه) إلى إعادة تشكيل مبادئها وأسسها بنفس المنهجية التلفيقية. إنها تلفيقية مسكونة بهدف البقاء المتميز، تجعل مبدأ القوة المادية أساساً لتبرير مشروعيتها وتقييم، ثم إعادة تشكيل، مبادئ وأسس حركتها ونظمها . ويبرز وصف ديفيد بن جوريون للجيش الإسرائيلي بانه "خير مفسر للتوراة" ، هذه التلفيقية بجلاء وهي التلفيقية التي كانت تجعل بن جوريون يفسر التوارة والتلمود ، فضلاً عن الواقع والتاريخ، من خلال توظيف انتصارات جيش الدفاع الإسرائيلي . إن قيم اليهودية التي تمت صهينتها كرافد أصيل في تركيب إطار قيم الصهيونية ، إنما تجعل مبدأ القوة مثاليتها وقيمتها العليا المحددة .

من "دولة اليهود" إلى "يهودية الدولة"
إشكالات الهوية المضطربة في إسرائيل[1]

صقر أبو فخر
٢٠١٠/١٠/١٥

يتم التفريق، عادة، بين مصطلح «دولة اليهود» ومصطلح «الدولة اليهودية»، وتفريق المصطلحين معاً عن «دولة إسرائيل». وهو تفريق صحيح من الناحية التاريخية، ومن ناحية دلالة المصطلح أيضاً. لكن هذه المصطلحات الثلاثة ما عادت الآن كثيرة الاختلاف في مضامينها، بل تحوّلت إلى مرادفات متعددة لأمر واحد تقريباً. والمعروف أن مصطلح «دولة اليهود» كما صاغه تيودور هيرتزل في كتابه Der Jusdenstaat يشير إلى دولة ذات أغلبية يهودية لا إلى دولة يهودية خالصة. وبهذا المعنى، فإن هذه الدولة هي دولة مدنية علمانية أو شبه علمانية، أي أن قوانينها وضعية مثل انكلترا بحسب تعريف هيرتزل نفسه. أما «الدولة اليهودية» فهي دولة ذات أغلبية يهودية، لكنها ذات قوانين يهودية، أي أنها دولة تحكمها الشريعة اليهودية. حتى أن جابوتنسكي، أستاذ مناحيم بيغن ويستحاق شامير، أكد أمام لجنة «بيل» في سنة ١٩٣٦، أنه يتطلع إلى قيام دولة لليهود تقطنها أغلبية يهودية، ولم يقل «دولة يهودية».

الدولة والدين والهوية :

هنالك دولتان أقيمتا بقرار دولي استناداً إلى الدين هما باكستان وإسرائيل. ومن مصادفات التاريخ أن هاتين الدولتين قامتا في السنة نفسها، أي في سنة ١٩٤٧، على اعتبار ان قرار التقسيم يمثل قرار إنشاء إسرائيل. وقد ورد مصطلح «دولة يهودية» أول ما ورد في قرار تقسيم فلسطين (رقم ١٨١) الصادر في ١٩٤٧/١١/٢٩. لكنه ورد بهذه الصيغة لا ليقرر صفة دينية لهذه الدولة، بل لتمييزها من الدولة العربية (الفلسطينية). أما إعلان بلفور (١٩١٧/١١/٢) فقد وردت فيه عبارة «الوطن القومي للشعب اليهودي» Homeland. «وعندما سأل حاييم وايزمن لويد جورج بعد صدور إعلان بلفور عن معنى عبارة الوطن القومي اليهودي رد لويد جورج قائلاً: «قصدنا بذلك دولة لليهود، أما استخدام مصطلح Homeland بدلاً من state فكان مجرد تكتيك لعدم إثارة العرب» (مايكل برابر، «الكتاب المقدس والاستعمار الاستيطاني»، دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٣). والمعروف أن الوزير البريطاني الوحيد الذي عارض إعلان بلفور كان الوزير اليهودي "إدوار مونتاغيو" لأنه كان من دعاة اندماج

[1] صقر أبو فخر - فلسطين - العدد ٦ - الجمعة ١٥ /٢٠١٠/١٠ - السنة الأولى.

اليهود في مجتمعاتهم الأوروبية، بينما "بلفور" كان من دعاة التخلص منهم مثل هتلر؛ والفارق بين بلفور وهتلر أن لدى بلفور مستعمرات ومنها فلسطين، فأرسل اليهود إليها، ولم يكن لدى هتلر مستعمرات، فأبادهم.

تكررت كلمة «الدولة اليهودية» في وثيقة قيام إسرائيل خمس مرات؛ هذه الوثيقة التي قرأها دافيد بن غوريون في مقر الجمعية التأسيسية اليهودية ليلة ١٩٤٨/٥/١٤، ووقعها، إضافة إلى بن غوريون وغولدا مئير وموشيه شاريت، للأسف، مئير فلنر القائد الشيوعي المشهور. ومنذ ذلك التاريخ اختفى إلى حد كبير مصطلح «الدولة اليهودية» أو مصطلح «دولة اليهود» وحلت محلهما عبارة «دولة إسرائيل». وفي المرات القليلة التي كان يرد فيها أحد هذين المصطلحين أي «دولة اليهود» أو «الدولة اليهودية» كان الذهن ينصرف فوراً إلى إسرائيل بالتحديد.

الخطير في الأمر اليوم أن مصطلح الدولة اليهودية ما عاد مجرد تعريف ذاتي للإسرائيليين بحسب القانون الأساس الذي أصدره الكنيست في ١٩٩٢، بل صار مسألة دولية بعد خطاب جورج بوش في مؤتمر العقبة (٢٠٠٣/٣/٤) الذي شدد فيه على هذه المسألة، ومسألة شرطية منذ أن أعلنتها الحكومة الإسرائيلية برئاسة أريئيل شارون في البنود الاعتراضية (١٤ بنداً) على خريطة الطريق في ٢٠٠٣/٥/٢٥، ثم انتقل ليصبح شرطاً لا تستقيم أي تسوية في المنطقة العربية من دون الاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية.

العدو الصهيوني مجدداً :

في أيار ١٩٩٤، بعد توقيع اتفاق الحكم الذاتي في القاهرة سافر ياسر عرفات الى جنوب افريقيا بدعوة من نيلسون مانديلا، حيث استقبل كبطل من أبطال السلام. كان من ضمن فعاليات هذه الرحلة زيارة لمسجد في جوهانسبورغ، حيث دُعي الجمهور والصحافيون إلى سماع خطاب الزعيم الفلسطيني. لم تدخل طواقم التلفزيون الى المسجد، غير أن صحافياً تمكن من تسجيل خطاب عرفات الذي أثار مشكلة حقيقية في إسرائيل، وأطلق عليه «خطاب الجهاد». قال عرفات في خطابه: «سوف يستمر الجهاد. القدس ليست ملكاً للشعب الفلسطيني وحده، بل للأمة الإسلامية أيضاً. بعد هذه الاتفاقية، يجب أن تعلموا أن المعركة الرئيسية تدور حول القدس. ليس بمقدوري أن أناضل وحدي من دون دعم الأمة الإسلامية. ابدأوا الجهاد من أجل تحرير القدس. إن هذه المدينة تتمتع بأهمية عظمى. ولهذا أصرينا، رفاقي وأنا، على المطالبة في هذا الاتفاق بأن تبدأ المفاوضات حول القدس في السنة الثالثة من توقيع الاتفاقيات. يجب أن نعطي القدس الأولوية المطلقة». وأضاف معلقاً على الاتفاقية الموقعة في القاهرة: «إنني أعتبرها مماثلة للمعاهدة التي وقعها نبينا محمد مع كفار قريش، لقد قبل النبي محمد بهذه المعاهدة، كما قبلنا الآن باتفاقية السلام، لكي نواصل الكفاح نحو القدس».

ثارت ثائرة الإسرائيليين، وهدد اسحق رابين قائلاً: «إنه لم يصل الى هنا بعد، وها هو يتحدث عن الجهاد! إذا كان عرفات قد تحدث فعلاً عن «الجهاد من أجل تحرير فلسطين»، فإن هذا التصريح يمكن أن يعرقل عملية السلام بيننا وبين الفلسطينيين. قد يجد عرفات نفسه محصوراً في غزة وأريحا. على كل حال، إذا كان فعلاً قد نطق بهذه الكلمات، فإن هذا يعتبر انتهاكاً صارخاً للالتزامات الواردة في رسائل الاعتراف المتبادلة بين م.ت.ف. وإسرائيل». ومع ذلك ففي تشرين الثاني ١٩٩٤، وأثناء مهرجانات أقيمت في غزة بمناسبة يوم الاستقلال الفلسطيني، أعلن عرفات أمام الجماهير المحتشدة في ملعب اليرموك قائلاً: «هذه هي المرة الأولى التي نحتفل باستقلالنا على أرضنا الفلسطينية المحررة. سوف نحتفل مستقبلاً على أراض فلسطينية أخرى يتم تحريرها من العدو الصهيوني»، وهنا لفته أحد مستشاريه، وعلى الفور أعاد عرفات العبارة الأخيرة مصححاً: «كلا، المعذرة: إسرائيل».

في هذا الميدان، نحن أمام حالة فريدة من اختلاط المفاهيم حيث الدين والقومية المبنية على الدين والعلمانية والفلكلور والرموز العقائدية تمتزج كلها معاً في صيغة غريبة عجيبة هي الصهيونية المعاصرة وتوابعها من اليهودية الحديثة. وسأحاول، بإيجاز، تفكيك هذه العناصر وإعادتها إلى مصادرها التاريخية بقدر الإمكان.

قومية الشتات :

تعود جذور المسألة اليهودية إلى القرن الخامس عشر عندما بدأ طرد اليهود من اسبانيا بعد سقوط الحكم العربي في الأندلس. وقد أدى الشتات اليهودي الجديد إلى تفاقم البلبلة والقلق في صفوف اليهود، والى اضطراب أحوالهم. وفي خضم هذه الحال عادت فكرة المسيح المخلّص (المشيحوت) إلى الظهور بينهم لإعطائهم بعض الأمل في الإنقاذ وجمع الشمل والخلاص. ومع أن أوروبا كانت في تلك الفترة تتهيأ للانقلاب التاريخي الذي قادته البرجوازية الصاعدة ضد الإقطاع، إلا أنها كانت لا تزال مجتمعاً زراعياً كاثوليكياً في معظمها. وفي ذلك المجتمع كان الغرباء والمنبوذون يتولون المهن الوضعية مثل الإقراض بالربا الذي حرّمته الكنيسة. وكان اليهود المكروهون جراء جريمة صلب المسيح يشتغلون في هذه المهنة. غير أنهم، مع صعود الرأسمالية بالتدريج، راحت هذه المهنة تدر ثروات كبيرة، وتزداد أهميتها في عالم التجارة. وبدأ المسيحيون الذين راحت البروتستانتية تتغلغل في وعيهم، والتي ترفض تقسيم المهن إلى مهن وضيعة ومهن رفيعة، ينافسون اليهود في مهنة الإقراض والوساطة. وهذا المنافسة التي فاقمت الكراهية لليهود، هي أحد عناصر نشوء اللاسامية الحديثة. واللاسامية الحديثة، أو معاداة اليهود، نشأت، أول ما نشأت، في المانيا جراء تدفق اليهود إليها من روسيا وبولونيا، ومنافستهم أبناء الطبقة الوسطى الالمانية، الأمر الذي أدى إلى بزوغ موجة من العداء لليهود في برلين أولاً، ثم امتدت لتشمل أوروبا كلها في ما بعد. أما نزعة معاداة اليهود، كظاهرة

تاريخية، فكانت قد نشأت في بولونيا الكاثوليكية وفي روسيا الأرثوذكسية لأسباب دينية خالصة. وفي هذه البلدان الثلاثة ظهرت أولى الأحزاب الصهيونية واقدمها.

والصهيونية حركة سياسية أرادت تحويل اليهود إلى أمة لها دولة. وقد تأثرت في أفكارها بالمفهوم الشرق أوروبي للقومية الذي يقوم على مزج الدين بالقومية على غرار روسيا الأرثوذكسية، وبولونيا الكاثوليكية، والبانيا الإسلامية، وكوسوفو الإسلامية والشيشان المسلمون والأرمن المسيحيون... وهكذا. فالدين في هذه الدول كان عنصراً تأسيسياً في تكوين الأمة. في المانيا تكونت الأمة أولاً ثم أنشأت الدولة على اساس لغوي وعرقي، في حين ان الدولة في الولايات المتحدة وكندا واستراليا، وهي دولة مهاجرين، هي التي أسست الأمة على أساس المواطنة. أما إسرائيل وجنوب افريقيا، على سبيل المثال، فهما دولتان أسسهما مهاجرون في سياق كولونيالي وعلى أساس عنصري وديني معاً. وبهذا المعنى فإن الصهيونية، أي قومية الشتات، قامت على نفي الشتات. أما الديانة اليهودية فهي قائمة على تقديس الشتات الذي هو المطهر الضروري قبل مجيء الماشيح؛ ففي الشتات اكتشف النبي إبراهيم الله، وفي الشتات أنجب يعقوب الأسباط، وتحول الأسباط إلى شعب، وفي الشتات أيضاً نزلت التوراة على موسى. وفي المقابل فإن غاية الصهيونية هي إلغاء الشتات وتحويله إلى أمة، والصهيونية نفسها هي تجسيد للتطابق التام بين الدين والقومية أو بين الشعب اليهودي والدين اليهودي. فحتى الملحد الذي لا يؤمن باليهودية يُعتبر، من وجهة نظر صهيونية، جزءاً من الأمة، بينما الذي يغير دينه يفقد هذا الانتماء ويفقد حق العودة إلى إسرائيل.

رفض المتدينون اليهود الصهيونية في البداية لأنها أرادت علمنة الدين بتحويله إلى قومية، وأرادوا الإبقاء على اليهود كامتياز روحي، أي شعب الله المختار أو «شعب السبت» الذي ينتظر قدوم المشيح المخلص، وفي هذا الجدل ظهرت «اليهودية الإصلاحية» وهي حركة كبيرة ومهمة نقضت فكرة العودة الشخصية للمشيح، وأحلّت محلها فكرة العصر المشيحاني، أي العصر الذي يتحقق فيه السلام والعدالة والمساواة من خلال التقدم العلمي والحضاري. لكن الصهيونية رأت أن وعي اليهودي لذاته لا يحدده إيمانه بل نبذ الآخرين له وكراهيتهم إياه. وهذه هي بالضبط ما سُمي «المسألة اليهودية» المعاصرة التي أفلحت الحركة الصهيونية في تأسيس دولة لطائفة متناثرة في شتى أنحاء العالم، وأنشأت بوتقة صهر Melting Point لهؤلاء جميعاً من خلال اللغة والجيش والرموز الدينية المشتركة والحياة اليومية الواحدة فوق أرض واحدة هي فلسطين المحتلة، مع أن الرموز الدينية لم تكن، في نظر مؤسسي الحركة الصهيونية، ذات قداسة على الإطلاق، فهي، لديهم، تعكس الانبعاث القومي لا التاريخ الديني. وآباء الصهيونية الأوائل رأوا حتى الكتب المقدسة كالتوراة والتلمود، مجرد فلكلور قومي يهودي. وكان هيرتزل يردد: «إن الدين لا يهمني، بل إن ما يهمني هو الأسطورة الجبارة للعودة»، وقد اعترف بأنه فكر ملياً بتحويل اليهود بشكل جماعي إلى الكاثوليكية كحلّ لأوضاعهم في مجتمع مسيحي ينبذهم. وهذا الحل الاندماجي كان كارل ماركس عرضه، لكن بشكل

أرقى بكثير، في كتابه «المسألة اليهودية» الذي رأى فيه ان دين اليهود هو التجارة، وأن إله اليهود هو المال. وإذا كنا نتطلع إلى تحرير الإنسانية، فيجب إذاً تحريرها من التجارة والمال، أي تحريرها من اليهودية وتحرير اليهودي من يهوديته.

دولة يهودية وديموقراطية: صيغة محال

في أي حال، كانت التوراة هي الركيزة الأساس في تشكيل الهوية اليهودية طوال حقبة الشتات (الدياسبورا). لكن في مرحلة التنوير الأوروبي (الهاسكالا لدى يهود أوروبا) رأى دعاة الاندماج أن في الإمكان أن يكون اليهودي مخلصاً لشعبه ومواطناً جيداً في الدولة التي يعيش فيها من دون التزام وصايا التوراة بدقة. وهذا يعني زحزحة الدين عن التأثير الحاسم في الحياة اليومية لليهودي، وخلخلة هذه الركيزة في تشكيل الهوية اليهودية. ومع صعود الصهيونية في بدايات القرن العشرين المنصرم عادت التوراة لتحتلّ مكانة مهمة في التفكير الصهيوني. لكن، بعد التحول من العيش في «المنفى» إلى الاستيطان في فلسطين، ثم إعلان الدولة بدأت مكانة التوراة بالانحسار لتحل المحرقة محلها في إعادة تشكيل الهوية اليهودية من غير أن ينتهي تأثير التوراة بالطبع، والتي وجدت في المتطرفين المتدينين (الحريديم) ما يعيد إليها نضارتها، الأمر الذي أعاد الجدل بقوة إلى إشكالية الهوية المعاصرة لإسرائيل ومواطنيها عرباً ويهوداً؛ هذه الإشكالية التي لم تجد حلاً لها حتى الآن.

إن تعريف إسرائيل بأنها «دولة يهودية وديموقراطية» تعني، بحسب القراءة الإسرائيلية، دولة قومية لليهود لكن بنظام ديموقراطي. أما دولة ديموقراطية فحسب فتعني لا يهوداً ولا عرباً، بل مواطنين، أناس، بشر، لهم حقوق متساوية.

لهذا يقف اليوم اليمين الصهيوني المتطرف (شبه العلماني أو العلماني) إلى جانب السلفيين المتطرفين (الحريديم) ليطالبوا بدولة يهودية لا بدولة ديموقراطية، لأنهم يخشون مكر التاريخ، كأن تتحول هذه الدولة اليهودية الديموقراطية يوماً ما إلى دولة ديموقراطية لجميع مواطنيها.

إن يهودية الدولة في إسرائيل المعرّفة بـ«الديموقراطية» والتي يرفع لواءها تيار الوسط الإسرائيلي بجناحيه اليساري واليميني، تفسر نفسها بنفسها إلى حد ما. فهي تؤكد أن جوهر الدولة يهودي، ونظامها ديموقراطي. بمعنى آخر، هي دولة قومية يهودية، لكن الشريعة اليهودية ليست مصدراً وحيداً للقوانين، بل إن القوانين الوضعية هي مصدر الأحكام مع اتكائها أحياناً على الشريعة اليهودية.

هنا أسمح لنفسي بالقول إن عبارة «دولة يهودية ديموقراطية» هي عبارة زائفة. إما دولة يهودية أو دولة ديموقراطية. والجمع بينهما من المحال. وبعض المفكرين الإسرائيليين يشددون على أن استمرار الاحتلال والضم المتسارع للأراضي ربما يجعل إسرائيل ديموقراطية بمعنى التعدد الاثني، لكنها لن تكون في هذه الحال يهودية في المستقبل. أما الانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة

فيجعلها يهودية بالتأكيد، لكن لا يجعلها ديموقراطية بالضرورة، بل ربما تتحول إلى دولة دينية معادية لقيم الديموقراطية التي صارت قيماً كونية.

إن إسرائيل إذا أرادت ترسيخ يهوديتها فستجد نفسها على جبهة الصدام المباشر مع عرب ١٩٤٨ وهم السكان الأصليون لفلسطين. وإذا أرادت التأكيد على ديموقراطيتها، فسوف تجد نفسها في مواجهة مع الجماعات الدينية المتطرفة فيها، علاوة على انكشاف هذا الادعاء وانفضاحه جراء المواجهة اليومية التي يخوضها الفلسطينيون ضد الاحتلال.

إنها أحد إشكالات الهوية المضطربة لإسرائيل. لكن مخاطر اعتراف العرب بيهودية دولة إسرائيل تفوق بسلبيتها ما لا يمكن قياسه من الآثار السياسية المباشرة. وعلى سبيل المثال:

١ ــ يفرض هذا الاعتراف على فلسطينيي ١٩٤٨ قسم الولاء عنوة للدولة اليهودية.

٢ ــ يفرض على أي نائب عربي منتخب الولاء، لا للدولة وقوانينها باعتباره مواطناً، بل الولاء للرموز الدينية أو القومية للدولة اليهودية كالعلم والشعار والنشيد... الخ.

٣ ــ يجعل قيام دولة إسرائيل أمراً مشروعاً وأخلاقياً؛ وهذا شأن خطير جداً لأنه يعني ان الفلسطينيين والعرب لا يعترفون بإسرائيل كأمر واقع، بل يعترفون بشرعيتها التاريخية، ما يجعل المقاومة الفلسطينية أمراً غير مشروع وغير أخلاقي، وأنها منذ ٦٢ سنة أو أكثر وهي تعتدي على حق اليهود في استيطان فلسطين.

٤ ــ ويعني أخيراً أن هذه الدولة اليهودية، حتى لو صارت أغلبية سكانها من غير اليهود، فستبقى يهودية تماماً مثلماً الفاتيكان دولة كاثوليكية حتى لو باتت أغلبية سكان روما من غير الكاثوليك.

إن جوهر نظرية انفصال اليهود عن الفلسطينيين غايته الحفاظ على هوية الدولة الإسرائيلية كدولة يهودية. وهذا هو الموقف الحقيقي لحزب العمل ولليسار الصهيوني التقليدي. وهذا التفكير هو الذي نفذ عملية «الترانسفير» أي ترحيل الفلسطينيين. أما اليمين الصهيوني، وهنا تكمن المفارقة، فلم يكن مؤيداً للانفصال الديموغرافي على الإطلاق. ومناحيم بيغن هو صاحب نظرية الحكم الذاتي المستمدة من تجارب دول شرق أوروبا في معالجة مشكلة الأقليات القومية والاثنية، التي تقوم على عدم الانفصال وعلى عدم الضم في آن. أي عدم رغبة إسرائيل في الانسحاب من الأراضي الفلسطينية المحتلة في سنة ١٩٦٧، وعدم قدرتها، في الوقت نفسه على ضمها.

ما حصل في إسرائيل منذ سنة ٢٠٠٠، في هذا الميدان هو تغير جوهري. فاليمين تبنى موقف اليسار الصهيوني بضرورة الانفصال الديموغرافي عن الفلسطينيين، أي إعطاء الفلسطينيين «دولة» لقاء ضم ما تريده إسرائيل من الأراضي الفلسطينية. وها هي اليوم تعرض «يهودية الدولة» لقاء «الدولة الموقتة». والدولة الموقتة هي، بكل بساطة، تحويل الصراع الفلسطيني ــ الإسرائيلي من صراع قومي إلى مشكلة حدودية.

جزّ العشب :

شكلت الكوارث جزءاً من الهوية التاريخية لليهودي: كارثة الخروج من مصر، وكارثة التيه في سيناء، وكارثة دمار الهيكل ودمار مملكة إسرائيل ومملكة يهودا والسامرة، ثم كارثة الدياسبورا، وأخيراً الكارثة النازية. ومع أن الصهيونية تمكنت من تأسيس دولة، فيما لم تتمكن حركة التحرر الوطني الفلسطينية من إنجاز هذه المهمة حتى الآن، فإن يهود إسرائيل يعيشون اليوم في خضم توقع الخراب المقبل أو الكارثة الآتية؛ فكثيرون منهم يعتقد ان إسرائيل خطر على اليهود مثل جماعة ناطوري كارتا وجماعة حباد، وغيرهم يعتقد أن اليهودية صارت خطراً على إسرائيل استناداً إلى ما أفصحت عنه حادثة المتطرف يغآل عمير الذي اغتال يتسحاق رابين. وتوقعات الخراب الآتي جعل كثيرين من الإسرائيليين يتساءلون: هل ستبقى إسرائيل موجودة بعد خمسين سنة؟ وبعضهم تتخلع أضلاعه وهو يسأل: مَن منا يعتقد أن أحفاده سيعيشون في إسرائيل؟

هذه الاسئلة ليست مجرد تمارين ذهنية لدى الإسرائيليين، إنما هي اكتشاف؛ فقد اكتشفت فئات واسعة من الإسرائيليين في معمعان الانتفاضة الثانية أن السيطرة على الفلسطينيين مثل عملية جز العشب، كلما جززته نبت مجدداً.

المراجع

- **عزمي بشارة، «من يهودية الدولة حتى شارون»، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥.**
- **عزمي بشارة، «دوافع إسرائيل إلى الاعتراف بها دولة يهودية»، مجلة الدراسات الفلسطينية (بيروت)، العدد ٧٣، شتاء ٢٠٠٨.**
- **روث غابيزون، «تأملات في مغزى وأبعاد مصطلح «يهودية» في تعبير دولة يهودية وديمقراطية»، رام الله، مجلة «قضايا إسرائيلية»، العددان ٣١ و٣٢، ٢٠٠٨.**

العنصرية[1]

العنصرية أو العرقية مصطلح حديث نسبياً لظاهرة اجتماعية – سياسية واقتصادية قديمة.

وهي ظاهرة برزت بأشكال واتجاهات ومضامين متنوعة وارتبطت بعوامل عديدة، وتضمنت جملة من الأهداف والمصالح المشتركة.

تبلورت العنصرية في أوروبا منذ نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، إذ كانت ظاهرة التمييز قد نشأت عن مصدرين ارتبط **الأول** منهما بأسرى الغزو والحروب، فيما قام **الثاني** على أساس ديني، حيث تجلى ذلك في كتاب التوراة إبتداء، والذي أخذته عنه الأديان الأخرى . وقد اعتمدت على التقسيم الذي ورد في العهد القديم بشأن "أولاد نوح الثلاثة سام وحام ويافث"، واعتبار "سام وحام" قد ارتكبا خطايا جعلتهما ، مع أحفادهما خدماً لـ"يافث وأحفاده" من بعده. ووفق هذه الأسطورة اعتبر الآسيويون أحفاداً لـ"سام" والأفارقة السود أحفاداً لـ"حام". أما أحفاد "يافث" فهم البيض، الذين صنفوا فيما بعد على أنهم من الجنس الآري أو الهندو – جرمان ، وهو تصنيف شمل فيما بعد غالبية الأوربيين.

لم تنشأ العنصرية دفعة واحدة، بل مرت بمراحل عديدة، واتخذت أشكالاً مختلفة ، وتبلورت إلى عنصرية جديدة تواجه البشرية حالياً ، باعتبارها خطراً يهدد العلاقات الإنسانية والتفاهم والسلم والصداقة بين الشعوب، كما ينتهك المبادئ التي تضمنتها شرعة حقوق الإنسان.

انطلقت النظريات العنصرية من اعتقاد مفاده أن البشر يتوزعون على جماعات كبيرة، قسمت أحياناً إلى ثلاث مجموعات هي الجنس الأبيض والجنس الأصفر والجنس الأسود، ثم قسمت إلى خمس وأحياناً إلى سبع مجموعات كبيرة وأخرى صغيرة. وفي فترة لاحقة جرى توزيع البشر إلى عروق مختلفة. واعتبر أصحاب هذه النظريات خطأ أن هناك تبايناً بين "الأعراق" ناشئاً عن اختلافات بيولوجية، أي عن تباين في الجينات الوراثية وخصائصها المختلفة ، وأن تلك الخصائص ثابتة لا تتغير تتوارثها الأجيال أباً عن جد .

وينشأ عن هذه الاختلافات ، كما يرى العنصريون، تمايزاً في القيمة الحقيقية للمجموعات البشرية المنتسبة لأعراق مختلفة .

ففي الوقت الذي يوجد "عرق" رفيع المستوى ومتطور ومتقدم في قدراته الفكرية والثقافية والسلوكية ، توجد بجواره "أعراق" أخرى متدنية المستوى وضعيفة التطور ومحدودة في كفاءاتها

[1] المصدر : هيثم مناع – الإمعان في حقوق الإنسان – ص٣٤٢

الذهنية والفكرية والثقافية والسلوكية وبدائية العاطفة والجنس والتصرف. وأن هذا "التمايز الطبيعي" و "الدائم " بين "الأعراق" يفرض بدوره تمايزاً في الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية، أي يفرض سيادة "العرق" الأفضل والأحسن والأرقى مستوى على "الأعراق" الأخرى الأدنى مستوى .

ويخلص هذا الرأي –العنصري– إلى نتيجة مفادها أن من حق وواجب "العرق" الأفضل أن يحكم ويسود ويفرض إرادته، كما ان من واجب "الأعراق" الأخرى الأدنى مستوى أن تسمع وتطيع وتخدم وتقبل بهيمنة وسيادة "العرق" الأرقى.

وتنشأ عن هذه النظرة الخاطئة والاستعلائية من جانب "الأنا" العرقية إزاء "الآخر" مجموعة من العواقب السلبية تتباين في حدتها وشدتها من فترة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر وفق شروط وظروف عديدة مؤثرة، وهي :

- الدعوة إلى الفصل بين الأعراق ومنع الاختلاط والتزاوج في ما بينها .
- التبشير، من الناحيتين النظرية والعملية ، بتراتبية اجتماعية عرقية تهدف إلى تكريس التمايز بين البشر باعتباره قانوناً طبيعياً لا يمكن تغييره .
- التمييز في التعامل في ما بين تلك الأعراق في الممارسة العملية التي تجد تعبيرها في التشريع والقوانين والنظم والتعليمات وفي الحياة اليومية، منها مثلاً : التمييز في الحصول على فرصة عمل أو على دار للسكن أو في مقدار الأجر ... إلخ، وكذلك في التجاوز على حقوق وواجبات مجموعات من الناس السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية في المجتمع ، بما فيها حقوق الأقليات القومية والدينية .
- **تنامي الكراهية والحقد والاستعداد إلى ممارسة العنف والقوة والتطهير العرقي وحتى استخدام القتل من جانب أتباع النظريات العنصرية ضد الجماعات البشرية الأخرى التي تعتبرها أدنى مستوى منها ، بل يصل إلى حد الإبادة الجماعية. فأتباع العنصرية يفتقدون إلى أي حس إنساني إزاء المجموعات الأخرى من البشر أو إزاء ضحاياهم.**

وتزداد مخاطر النظريات العنصرية في الممارسة العملية عندما تتشابك وتتفاعل في ما بينها مجموعة من العوامل مثل التمييز العرقي والتمييز الديني أو الفكري والسياسي ، إذ تتحول عندها إلى أداة أشد عنفاً واستعداداً للقتل والتدمير ضد الإنسان الآخر أو ضد الآخرين، وبشكل خاص إذا كان أتباعها في السلطة .

مورست العنصرية، في الغالب الأعم ، من تلك الجماعات من البشر التي كانت أو ما تزال تدعي تحدرها من "العرق" الأفضل والأرقى ، فهي تمجد وترفع من شأن الـ "أنا" والـ"نحن" العرقية من جهة ، لتمارس التحقير والإساءة إزاء "الآخر" أو "الآخرين" من جهة ثانية. وهذه الاتجاهات الأيديولوجية شكلت وما تزال عمارة الفكر العنصري الأوروبي عموماً والأيديولوجية النازية في ألمانيا

الهتلرية على وجه الخصوص، ولكن الاتجاهات والممارسات العنصرية ما تزال موجودة وفاعلة إلى هذا الحد أو ذاك في أوروبا وأمريكا وفي العديد من البلدان مثل إسرائيل وتركيا وإيران .

تؤدي العنصرية وظيفة سياسية واجتماعية واقتصادية وثقافية متداخلة، فهي تهدف إلى ممارسة الهيمنة الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية أولاً، وإلى ممارسة السيطرة الاستعمارية والاستغلال ثانياً. وهي بهذا تحمل مخاطرها الكبيرة معها باعتبارها أيديولوجية عنيفة معادية للشعوب وتطمع في الهيمنة والاستغلال والتحكم برقاب الآخرين.

وتواجه البشرية اليوم في مناطق مختلفة من العالم توجهات عنصرية جديدة للتمييز بين البشر تهدف من وراء ذلك إلى التكيف مع واقع العصر الجديد .

لكن بروز التمييز برداء جديد لا يغير من جوهر وأهداف ما يطلق عليه اليوم بالعنصرية الجديدة، تلك العنصرية التي تدعي بأن التمايز بين البشر يقوم على أساس التمايز بين الثقافات المختلفة التي لا يمكن ان تلتقي ، وبالتالي تدعو إلى الفصل العنصري بين الثقافات للحفاظ على سلامة ونقاوة ثقافتها ، وهو أمر لا يمكن أن يعني سوى الفصل العنصري بين البشر منتجي وحاملي تلك الثقافات .

تتعارض العنصرية مع الديمقراطية وشرعة حقوق الإنسان ، إذ أن مضمون المبادئ الديمقراطية وشرعة حقوق الإنسان ترفض هذا التقسيم العرقي للبشر وتؤكد على واحدية الجنس البشري، رغم التنوع في شكل الإنسان وفي ثقافاته وعاداته وتقاليده المرتبطة بتأثير جملة من العوامل .

إن المساواة بين البشر تعني منع امتهان كرامة الإنسان وترفض استعباده، مثلما ترفض التمييز بين الرجل والمرأة على عكس الفكر العنصري .

ويفترض هنا الإشارة إلى أن العنصرية قد اقترنت وعلى مدى عهود طويلة بمجموعات من الناس البيض ، إلا أن هذا لا يعني بأي حال بأن العنصرية محصورة فيهم فقط، بل يمكن أن نجدها عند شعوب من غير البيض أيضاً. **فرغم أن اليهود عانوا من العنصرية والمعاداة للسامية في سنوات حكم النازية مثلاً ، إلا أن دولة إسرائيل لم تتعلم من ذلك الدرس كثيراً ، إذ أنها تمارس منذ أكثر من ستة عقود العنصرية في الموقف من العرب فيها، ومن الشعب الفلسطيني** في الأراضي العربية المحتلة أو حتى في الموقف من اليهود السود القادمين إليها من إثيوبيا أو اليهود الشرقيين، أو في سياسات التوسع والاحتلال والعقوبات الجماعية. كما تتجلى هذه العنصرية في السياسة التي تمارسها الدولة التركية إزاء الأكراد، شعباً ولغة .

وتبرز هذه العنصرية بوضوح حتى الآن في الولايات المتحدة الأمريكية إزاء السود الأفارقة والهنود الحمر وكذلك ضد المجموعات السكانية من أصل آسيوي أو من أمريكا اللاتينية .

التطور التاريخي للعنصرية :

مرت الايديولوجيا والممارسات العنصرية الحديثة بمراحل ثلاث أساسية على الصعيد الأوروبي، حيث نشأت فيه وانطلقت منه العنصرية الحديثة، هي :

المرحلة الأولى : بدأت هذه المرحلة بمحاولات بذلتها الفئات الحاكمة في أسبانيا وبدعم من الكنيسة للبرهنة على وجود تمايز بين البشر، وأن من حق الأسبان المسيحيين أن يستعبدوا السود المخطئين للتكفير عن ذنوبهم .

المرحلة الثانية : وهي الفترة التي بدأت مع بداية القرن الثامن عشر واستغرقت القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين تقريباً . فقد تواصلت في هذه المرحلة محاولات التمييز بين البشر على أساس الاختلاف في لون البشرة وشكل الجمجمة وجبهة الإنسان أو جبينه، وشكل الأنف والفم والفكين والعينين والأطراف، أي على المظهر الخارجي للإنسان.

وقد تغذت هذه النظريات العنصرية على نظرية دارون في الارتقاء والتطور والصراع من اجل البقاء والبقاء للأصلح، رغم تأكيد دارون على أن أصل الإنسان واحد ، من جهة، وعلى الدراسات البويولوجية التي نشطت كثيراً في عدد من البلدان الأوربية .

لقد عمد الحزب النازي إلى وضع تلك النظريات في التطبيق العملي في ألمانيا، أو ضد الصينيين والكوريين والفيتناميين من قبل العرقية اليابانية . وكان هناك نموذج واضح آخر للعنصرية في هذه الفترة تجلى في ممارسة العنصريين الأوربيين لسياساتهم العنصرية في كل من روديسيا وجنوب أفريقيا مثلاً ، كما مورست السياسة العنصرية في الولايات المتحدة الأمريكية حتى عام ١٩٦٥ رسمياً إزاء السكان السود ، مثلما مورست بصورة غير رسمية إزاء الآسيويين أيضاً من قبل الأنجو – ساكسونيين .

المرحلة الثالثة : تتضمن الفترة التي بدأت مع نهاية الحرب العالمية الثانية ، وهي ما تزال متواصلة حتى الآن ، علماً بأنها تحاول أن ترتدي لبوساً أخرى وتطرح أفكارها بوسائل مختلفة، إلا أنها تبقى من حيث المبدأ وفي الجوهر والممارسة والنتائج واحدة، وهي التي يطلق عليها اليوم بالعنصرية الجديدة التي تتستر وراء راية الهوية الثقافية القومية واللغة الوطنية.

إن العداء للأجانب والذي يتصاعد في أوروبا في المرحلة الراهنة لا يخرج في جوهره عن كونه شكلاً من أشكال العنصرية والكراهية للآخر والخوف منه، رغم تشابكه وتفاعله مع عوامل وأسباب أخرى .

وفي النهاية تزداد مخاطر هذه العنصرية عندما تتشابك مع التعصب الديني والأصوليات الدينية المتطرفة حيثما برزت لتتحول إلى أداة خطرة بيد أصحابها .

العنصرية والصهيونية [١]

في العاشر من ت٢ (نوفمبر) ١٩٧٥ ، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها التاريخي رقم ٣٣٧٩، الذي أدان الصهيونية واعتبرها " شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري".

ونقول تاريخي ، لأنه كانت هذه أول إدانة للصهيونية في منظمة دولية فيما يتجاوز حدود العالمين العربي والإسلامي ودول العالم الثالث. **وقد صدر القرار بأغلبية ٧٣ صوتاً مقابل ٣٥ وامتناع ٣٢ صوتاً ، فيما يشكل ضربة هامة للايديولوجيا الصهيونية وممارساتها ، ويضع حداً لخطاب " التفرد التاريخي" وانبعاث الأمة اليهودية العالمية و "التفوق على الشعوب الأخرى". كذلك يفصل بين مفهوم حركة التحرر الوطني والصهيونية.**

ومنذ إعلان القرار ٣٣٧٩ ، بدأت المنظمات الصهيونية العالمية وإسرائيل معركة فكرية ودبلوماسية وسياسية وإعلامية تهدف إلى إعدام هذا القرار وحمل الدول التي صوتت عليه للتنصل منه، واستعملت سلاح العداء للسامية بين ما استعملت من أسلحة واعتبرته تشجيعاً "للإرهاب ضد إسرائيل".

وتعني تصفية العنصرية بجميع أشكالها من جهة، واعتبار الصهيونية حركة عنصرية من جهة ثانية ، ضرورة محاربة الممارسات الصهيونية التي تتجلى عبر ممارسات دولة إسرائيل باعتبارها المؤسسة الرسمية والعسكرية الصهيونية الأولى في العالم . بل ويطرح تساؤلاً قانونياً هاماً حول "شرعية" الوجود الإسرائيلي كوليد للحركة الصهيونية . من هنا جاء استنفار إسرائيل واللوبي الصهيوني للتخلص من هذا القرار بكل الوسائل خصوصاً ولانه يفتح ملف الممارسات العنصرية اليومية في إسرائيل على صعيد هيئات الأمم المتحدة المختلفة.

وبعد ١٦ عاماً من الاستنفار الصهيوني الذي تواكب مع تغييرات عالمية –أهمها انهيار الاتحاد السوفيتي– أعطت الولايات المتحدة دوراً مهيمناً في مجلس الأمن استطاعت "إسرائيل" والولايات المتحدة إلغاء هذا القرار في ١٦ ديسمبر/ك١ ١٩٩١، وقد صوتت من أجل ذلك ١١١ دولة. ولم يحدث في تاريخ الأمم المتحدة أن أصدرت جمعيتها العامة قراراً بهذه الأهمية ثم قامت بالعدول عنه ونقضه أو إلغائه.

---

[١] المصدر : هيثم مناع – الإمعان في حقوق الإنسان – ص٣٤٩

ويعتبر قرار الإلغاء سابقة خطيرة تتعلق بآليات عمل الجمعية العامة ومدى صدقية الأمم المتحدة. فالقرار لم يكن نزوة ولم يصوت عليه من أول اقتراح بل كان محصلة لعدة قرارات تدين الممارسات الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين والعرب من دول الجوار الفلسطيني. سواء كان ذلك فيما يتعلق بالتمييز بين السكان أو بالاضطهاد في ظل الاحتلال أو الممارسة المنهجية للاستيطان وطرد السكان من أرضهم ولم تقم "إسرائيل" بتغيير هام في سياستها يستتبع إلغاء القرار. على العكس من ذلك، فقد جاءت مباحثات مدريد واتفاقيات أوسلو وواي ريفر وشرم الشيخ لتؤكد أن السلام الحقيقي بعيد المنال بسبب التعنت الإسرائيلي الرافض لإخلاء أراض احتلت بالقوة وعومل ويعامل أهلها بشكل عنصري يميز بوضوح بين المستوطن اليهودي والساكن الأصلي العربي. هذا إضافة إلى تعامل "إسرائيل" بمنطق القوة والأمر الواقع في غياب أية ضغوط دولية غربية على هذا البلد، في تغييب كامل لمنطق الحق والقرارات الدولية.

فوفقاً لتقرير تقدم به مركز "عدالة" للجنة متابعة المعاهدة الدولية لمحو التمييز العنصري – الأمم المتحدة، يوجد في "إسرائيل" ٢٠ قانوناً تمييزياً ضد المواطنين العرب ، ١٧ قانوناً منها، هي قوانين تمييزية بشكل مباشر وصريح منها قوانين مصادر القانون الإسرائيلي وحقوق المواطنة، وحقوق المشاركة السياسية ، وحقوق الإسكان والأرض والحقوق الثقافية وحقوق التعليم والحقوق الدينية، الحد من سيطرة الأقلية العربية في البلاد ، فيما يتعلق بالأرض والإسكان. فالفلسطيني محروم من حق العودة لأراض يسكنها منذ آلاف السنين، ويحق لكل يهودي في أي جزء من العالم أن يصبح إسرائيلياً متى شاء مع مساعدة مالية.

وبعد أن صادرت "إسرائيل" ممتلكات العرب الغائبين بعد ١٩٤٨ تتابع مبدأ حرمان الفلسطيني من شراء الأرض في بلده ، وتصادر "الحكومة الإسرائيلية" الأراضي الفلسطينية المحتلة بعد ١٩٦٧ لتزرع فيها المستوطنات اليهودية، ناهيكم عن مصادرتها مصادر المياه الأساسية . لا يحق للفلسطيني أن يشتري سكنا في القدس ، وليس للقرى العربية نفس الحقوق والمساعدات المخصصة للقرى اليهودية. وتميز بطاقات الهوية الإسرائيلية بين السكان على أساس قومي وديني وكذلك تفعل المؤسسة العسكرية، ومنذ عام ١٩٤٨، لم تقبل المحكمة العليا أي قضية تتعلق بمطلب تحقيق المساواة للعرب مع اليهود. بكلمة ، مواطن الدرجة الأولى في "إسرائيل" هو اليهودي ثم يأتي غير اليهود كجزء إجباري من الديكور لم تنجح الحركة الصهيونية في إبادته تماماً .

والحديث عن "ما بعد الصهيونية"، لا يأتي ليعزز خطاباً علمانياً إنسانياً بقدر ما يعطي القوة للتطرف الديني اليهودي الذي لا يفعل سوى تأكيد هذا التمييز بشكل صارخ. الأمر الذي يعيدنا إلى نقطة الانطلاق التي كانت وراء إدانة الصهيونية : لقد سعت هذه الحركة وأصلت قيام كيان سياسي يمارس التمييز العنصري والديني بين السكان وعلى حساب شعب لم يتمكن حتى اليوم من تقرير مصيره بحرية على أرضه .

الصهيونية: كولونيالية أم دين؟

المحرر :**شموئيل أمير**

ردّت إحدى الكاتبات على مجموعة مقالات نشرتها مؤخرًا بعنوان "مسائل في الصهيونية" وادعت أن المشكلة الأساسية لأمراض إسرائيل هي الدين، أو كما عكست ذلك في العنوان الفرعي لمقالها "كيف ابتليت الصهيونية السياسية بالدين اليهودي". وكتبت هناك: "عندما ولدت الصهيونية كفكرة متنورة ومثيرة وغنية بالوعود، لم تعرف تماما كيف تفصل المستقبل الصهيوني عن الماضي اليهودي". وطرحت أسئلة مثل: "لماذا يتصرف الشعب الإسرائيلي بشكل لا يتلاءم تماما مع مجموعات كولونيالية أخرى"؟.

وفسّرت الغبن ضد العرب والتمييز بين اليهود والعرب في إسرائيل بالقول "انه نابع من الشذوذ الإسرائيلي الناجم عن النزعة الدينية الخاصة والتي تؤثر على دولة إسرائيل، وانضمام هذا اليسار إلى الموديل الرجعي الذي تطرحه الأرثوذكسية الدينية لإسرائيل".

ويبدو لي أن نقطة الانطلاق هذه مغلوطة تماما مع أن هناك إمكانية لاستيضاح العلاقة بين الصهيونية والدين في تبلور القومية الإسرائيلية.

لا توجد في اعتقادي إمكانية حتى للبدء في فهم المجتمع الإسرائيلي دون الاعتراف بأن الكيان الإسرائيلي ولد ضمن سيرورة كولونيالية، وبناء على ذلك فحتى الخروج من الورطة يجب أن يبدأ بسيرورة معادية للكولونيالية. أما جعل كل السلبيات الأرثوذكسية الدينية أساسا وتحميلها مسؤولية كل أحابيل الكولونيالية الصهيونية عبر تنظيفها، فهو أمر لا يستند إلى أية حقائق، وهو بكل بساطة افتراء على التاريخ.

يجب التذكير بحقائق أساسية في هذا السياق: الدين الممأسس– الأرثوذكسي– عارض كليا الصهيونية منذ بدء ظهورها. والسبب الظاهر كان أن المؤسسة الدينية تخاف فقدان السيطرة على المهاجرين– وهي عارضت كذلك الهجرة لأميركا وأوروبا الغربية، وبحق من ناحيتها فغالبية هؤلاء المهاجرين خسرهم الدين الأرثوذكسي.

هذا هو السبب الواضح، ولكن هناك أيضا سبب أعمق بكثير وهو أن الصهيونية كانت حركة قومية جرى "تبنيها" من "الأغيار" أي أنها حركة نمت من الحركات القومية الأوروبية في ذلك الوقت. وتلك الحركات قامت على خلفية ضعف الدين الذي تسلط على الأفكار في عهد ما قبل الرأسمالية. فالحركات القومية تطورت على خلفية ظهور الحضارة الأوروبية التي استبدلت الدين كفكر متسلط وحاكم، وبين اليهود تطورت على خلفية حركة "الهسكلاه". وإن اليهود الذين تحرروا من الدين انضموا

إلى حركات قومية. وهذا ما كان في كل البلاد الأوروبية وهذا ما كان كذلك بالنسبة للعلاقة مع الصهيونية والتعامل معها.

غالبية الصهاينة الأوائل كانوا علمانيين من موشيه هس حتى هرتسل ونورداو وفاربورغ واوبنهايمر وبودنهايمر في ألمانيا (وكان قادة الصهيونية الألمانية ذوي تأثير كبير جدا في السنوات الأولى للحركة الصهيونية العالمية). وهكذا هو الأمر بين يهود روسيا في تلك الأيام: احاد هعام (اشر غينتسبرغ) واوسيشكين وبنسيكر وموتسكين، وكذلك قادة الهجرة الثانية، بن غوريون وبن تسفي وبيرل كتسنلسون ويتسحاق طبنكين وغيرهم. كلهم كانوا علمانيين وغير متدينين.

مرة أخرى يتضح أن الصهيونية لم تنبت من داخل اليهودية أو الدين اليهودي إنما بالذات من العلاقة مع البيئة غير اليهودية، وبتأثير الشعوب التي عاش بينها اليهود. وخلافا للادعاء الذي يطرح أحيانا، فليس اليهود الذين صلوا خمس مرات في اليوم لمجيء "المسيح" والرجوع إلى القدس، إنما بالذات أولئك الذين لم يصلوا هم من صاروا صهاينة.

وليس من باب الصدفة أن الحركة الصهيونية لم تتطور في أوساط يهود الشرق البعيدين عن الحداثة الأوروبية وعمليات العلمنة.

هناك نسبة قليلة من اليهود المتدينين انضمت إلى الصهيونية وأطلق على هذا التيار بحق اسم "الصهيونية الدينية" (وليس "الدين الصهيوني"). والراب راينس، مؤسس حركة "همزراحي" الصهيونية الدينية، وضع الصهيونية الدينية في الجانب المعتدل من الصهيونية، وقد فرق بين الصهيونية والمسيانية ودعم برنامج أوغندا.

الصهاينة لم يكونوا متدينين لكنهم كانوا متحمسين بشدة للأساطير اليهودية ومنها استمدوا الأساس للصهيونية، على الرغم من عدم إيمانهم بالدين. هذه الظاهرة لم تكن مميزة أو مختلفة عما هو دارج في الحركات القومجية حينئذ. وتلك الحركات أيضا أوجدت ومجّدت أبطالا ميثولوجيين قدر ما استطاعت. فقد أوجد الفرنسيون أسطورة رونالد، والألمان ارمينيوس والانجليز الملك ارثور. وبشكل مشابه تبنى الصهاينة غير المتدينين قصص التوراة لخلق أيديولوجيا وهستوريوغرافية صهيونية. الجانب الكولونيالي للصهيونية تكوّن عندما تحولت الهجرة إلى فلسطين إلى واقع ملموس. وتحولت الصهيونية إلى كولونيالية، أي أنها تستوطن على حساب السكان الأصليين، مع استمرار تحققها في فلسطين. والصهيونية لم تكن متميزة بذلك، كونها تبنت الرأي الذي ساد في أوروبا الامبريالية في ذلك الوقت والذاهب إلى انه يمكن الاستيطان في كل مكان عبر البحر غير آخذين بعين الاعتبار الشعوب في تلك الأماكن.

وهنا أيضا وجدت الصهيونية اللغة المشتركة جدا للمستوطنين الكولونياليين في كل العالم بالنسبة لاعتبار أهل البلاد الأصليين من الرجعيين والمتخلفين من ناحية ثقافية وعديمي الإبداع وخونة، وليسوا من بني البشر وما شابه ذلك.

كل تلك المصطلحات جاءت لتبرر سلب الأرض والطرد والإبادة ومصادرة الأرض من الشعوب الأصلية. فلا مكان إذن للاستغراب من تصريحات مؤسس الصهيونية، هرتسل، الذي كتب في كتابه "دولة اليهود" ما يلي: "نحن سنكون هناك جزءا من الحصن الأوروبي ضد آسيا، وموقع تحصن مقابل البربرية". وأضاف: "سيقال إن الفقراء فقط سيجيئون معنا لكن هؤلاء بالذات هم الذين نريدهم في البداية. اليائسون فقط سيكونون محتلين جيدين". ونورداو، صديق هرتسل، ذكر في خطابه في المؤتمر الصهيوني الأول الآسيويين والأفارقة المتآكلين! والاشتراكي بوروخوف وجه إليهم وصف "الجيران شبه البرابرة".

تلك التصريحات كانت تصريحات عنصرية عميقة نطق بها كولونياليون من كل الأنواع ضد الشعوب التي استعبدوها ونبعت من واقع الاحتلال والتسلط على الشعوب الأصلية وليس بدوافع دينية. وهكذا كان أيضا في الكولونيالية الصهيونية وقبل أن يتسلط الدين الأرثوذكسي ظاهريًا على "الصهيونية المشرقة" بكثير.

ولقد انضم الدين اليهودي للصهيونية في مرحلة متأخرة جدا. وهرتسل أراد توسيع قاعدة دعم الصهيونية و"امتلاك" يهود متدينين، ولكن بدون كثير نجاح. وعلى شرف المؤتمر الصهيوني في بازل بذل المنظمون جهدا لكي يجلس الربانيم على المنصة وفتشوا عن راب أرثوذكسي يرتدي القفطان الطويل والأسود كزينة تجميلية.

في كل سنوات تكوّن الصهيونية وما بعد ذلك، فإن الصهيونية الدينية لم تقم بدور هام وبالتأكيد لم تقم بأي دور قيادي في الحركة الصهيونية حتى قيام الدولة وبالأحرى حتى حرب حزيران ١٩٦٧. لقد كانت الصهيونية الدينية تابعة بالذات للجزء الأكثر اعتدالا في المستوطنات وفي الدولة. وفي العهد الصهيوني الطلائعي قلّد المتدينون جيدا الحركات الصهيونية العلمانية. وهذا اتضح كذلك من خلال أسماء حركاتهم، ففي اليسار الصهيوني كانت لهم أسماء "هبوعيل هتسعير" (العامل الشاب) و"حزب عمال أرض إسرائيل"، وفي القطاع الصهيوني المتدين نجد أسماء مثل "هبوعيل همزراحي" (العامل الشرقي) وحتى "عمال أغودات يسرائيل". والى جانب الكيبوتسات والقرى التعاونية التابعة لحركة العمل قامت أيضا قرى وكيبوتسات تابعة "للعامل الشرقي" و"عمال أغودات يسرائيل".

لقد كانت الصهيونية الدينية شريكة في أهداف وممارسات الصهيونية، وفي الجدل حول أوغندا دعم الراب راينس مواقف هرتسل من اجل البرنامج. وفي وقت لاحق جدا دعم همزراحي برنامج التقسيم الذي اقترحته لجنة بيل في عام ١٩٣٧ وقرار التقسيم للأمم المتحدة في عام ١٩٤٧، وظهرت القومجية التي تقدس الأراضي كمغتربة عن القيم اليهودية. وفي منظمات مثل "بريت شالوم" (حلف السلام) فإن عدد الصهيونيين المتدينين كان كبيرا نسبيا. حتى أن شخصية مثل بروفيسور ليبوفيتش تندرج في هذا الإطار. ومع قيام الدولة كانت الصهيونية الدينية برئاسة ي. شبيرا بشكل عام على يسار "مباي" وبن غوريون، حتى أن الراب ابراهام يتسحاق هكوهين كوك، الأب الروحي للمستوطنين حاليا، انسجم عمليا في التيار الصهيوني العام عندما رأى في أعمال العلمانيين مدنّسي القيم (اليهودية) وأساسا الطلائعيين منهم "قدسية عليا". وحسب رؤيته الثيولوجية فإن العلمانيين سيبنون الدولة المادية. وفقط بعد ذلك يأتي دور المتدينين (كطالب في "هشومير هتسعير" يذكرني هذا بنظرية المراحل لمئير يعاري: في البداية نبني الدولة وفي المرحلة الثانية يأتي دور الثورة الاشتراكية).

حسب كل هذا هناك مكان للسؤال: متى نجح المتدينون في نقل أمراضهم إلى الصهيونية السياسية؟ هل يمكن أن الانعزالية الصهيونية عن المواطنين العرب وخلق مجتمع منافس لهم في فلسطين مصدرها في تطبيق أسس الدين اليهودي؟

لهذا الافتراض أيضا لا يوجد أساس تاريخي فالحركات الاستيطانية الصهيونية بقراها وكيبوتساتها العلمانية لم يخطر ببالها إطلاقا استيعاب فلسطينيين. وقد تصرفت بالضبط كما عمل بجهد كولونياليون في العالم كله دائما لإقامة جدران بينهم وبين السكان الأصليين. لنأخذ مثلا آخر للعزلة الصهيونية: "الكيرن كييمت"، فهي كما هو معروف منعت منذ البداية بيع أراض لغير اليهود. ولم توافق على إقامة بلدة غير يهودية على أراضيها، فهل سلكت كذلك من منطلقات دينية؟ لا يوجد أساس لذلك. فقد تأسست "الكيرن كييمت" من قبل يهود علمانيين حسب نموذج صناديق أرض مشابهة كانت في الموضة في نهاية القرن التاسع عشر في ألمانيا القيصرية وكان هدفها التسلط على أراضي الفلاحين البولونيين أو منع جعل تلك الأراضي في أيدي البولونيين، أي أنه هدف محلل ومفهوم لكل توسع كولونيالي..

ومن النماذج المعروفة للفصل بين عمال يهود وعرب كان الشعار "احتلال العمل"، وهذه كانت حركة تأسست من قبل حزب "هبوعيل هتسعير" وهدفها تزويد العمل للعمال اليهود الذين لا عمل لهم ومن خلال طرد العمال العرب الذين اشتغلوا عند اليهود، ولهذه السياسة أيضا لم تكن أية علاقة بالدوافع الدينية فأصحاب البساتين اليهود فضلوا العمال العرب لأنهم كانوا ارخص ومتعودين على العمل الزراعي أكثر من اليهود أما القادمون الجدد و"هبوعيل هتسعير" فقد فضّلوا بالذات التأكيد على

النظرة الصهيونية: "الشرط الأساسي لتحقيق الصهيونية هو احتلال مجالات العمل في البلاد من قبل اليهود".

وفي خاتمة المطاف فان "احتلال العمل"، فشل بشكل ذريع فقد تواصل تشغيل العرب في المستوطنات حتى ولو بأجر زهيد، وفي أماكن عمل غير مهنية، وهذا بشكل مناف تماما للادعاء وكأن اليهود لم يشغلوا العرب من منطلقات دينية وخلافا لمصلحتهم العامة.

كذلك فإن الادعاء بان اليهود سلكوا خلافا لمستوطنين أوروبيين في دول أخرى لا أساس له إطلاقا، إلا إذا كانوا يريدون خلق "شذوذ" ملفّق. ففي كل مكان درجوا على الفصل بينهم وبين السكان المحليين والبيض. وبالطبع كانت هناك فوارق بين الكولونيالية الصهيونية وبين الكولونيالية في دول أخرى كما تتطلب ذلك الشروط المختلفة في دول أخرى ولكن عدا عن انه لم تكن قوة امبريالية متجانسة وقفت من خلف المستوطنين الصهاينة (مع أنه توجد سوابق في الكولونيالية الأوروبية الأخرى) فقد كان هناك شبه كبير بين الكولونيالية في فلسطين وتلك المسيطرة في باقي الأماكن.

إن جدعون شفير الذي ألف كتابًا شاملا وأساسيًا عن الكولونيالية الصهيونية يلخص ذلك كما يلي: "في الأساس كان هناك شبه رئيسي بين أهداف الهجرة الثانية وبين أهداف مستوطنين بيض في أماكن أخرى، أي مستعمرات هدفوا فيها إلى تأليف مجموعة سكانية متجانسة من المستوطنين المهاجرين". ويمكن بوجه خاص الاتفاق مع شفير عندما كتب أن الفصل بين اليهود والعرب كان "النتيجة" وليس "السبب" للنزاع الإسرائيلي الفلسطيني.

هذا هو واقع الكولونيالية الصهيونية وهو ليس نابعا إطلاقا من اعتبارات دينية إنما من المنطق الداخلي للكولونيالية التي جاءت للتسلط على الشعب الذي وجد في المكان.

إن المشاعر المعادية للمتدينين في أوساط الجمهور اليوم متأثرة بالطبع، عدا عن الإكراه الديني بحد ذاته، من الاستيطان الديني البلطجي في المناطق المحتلة على مدى ٤٠ سنة بالتقريب. وقد استعمل المستوطنون الدين كتبرير وحتى كأمر ووصية من أجل سلب الأرض والقمع والتسيّد. لكن حتى هنا من المهم ذكر أن الدافع الأول لتأسيس حركة "أرض إسرائيل الكاملة"، جاء من الجانب اليساري العلماني للمجتمع الإسرائيلي. فإن نتان الترمان وعائلة طبنكين من الكيبوتس الموحد انضما إلى يغآل الون وشمعون بيريس، وهم الذي منحوا الشرعية "لغوش ايمونيم"، وهم الذين أدخلوهم إلى البهو الإسرائيلي. وهنا أيضا يجب الإشارة إلى أن "مشروع" الاستيطان هو من بدايته احتلالي واستعلائي والعنصر الديني فيه هامشي. وقد أجاد وصف ذلك الصحافي يائير شيلغ في "هآرتس"

بتاريخ ٢٠٠٥/٣/٣، عندما كتب تحت عنوان"تزمت صهيوني ليس بالذات دينيا" يقول إنه في قطاعات من الصهيونية الدينية تحولت القيم الصهيونية نفسها، كالاستيطان، لمواقف ذات صبغة أرثوذكسية أقوى من كل مبدأ شرائعي.

إن رغبة الكاتبة التي ردّت عليّ بالفصل بين الدين والدولة ورغبتها في مجتمع لكل مواطني الدولة مفهومة، ولكن هذا النضال ونجاحه مرتبطان بالمعركة ضد الاحتلال وضد أن تكون إسرائيل كولونيالية، ولكن إذا كانت تلك الرغبات مقرونة بالموافقة على الاحتلال فإنها تفقد طابعها التقدمي والليبرالي.

معاداة الدين غير المقرونة بالسعي لإنهاء الاحتلال تصير متشابهة مع سياسة يوسيف (طومي) لبيد. فهو كذلك يسعى لفصل الدين عن الدولة، إلا أن الاحتلال بالذات لا يزعجه.

(*) كاتب وناشط يساري

تتوجه هيئة تحرير "الحياة الجديدة" إلى الرفاق في كافة الفروع ، المبادرة إلى تقديم ملاحظاتهم وآرائهم ومقترحاتهم حول الموضوعات التي تناولها هذا العدد من "الحياة الجديدة" ، كما نأمل منهم موافاتنا بأية أفكار أو مقالات أو وجهات نظر فكرية أو تنظيمية لنشرها في الأعداد القادمة.

البريد الإلكتروني : cdideology@hotmail.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
شعار يهودية الدولة بين غطرسة القوة والأسطورة التوراتية	٦
"إسرائيل" متحف الأجناس	١٢
المسألة اليهودية: تفسير ماركسي	١٧
مقتطفات من دراسة المفكر أديب ديمتري بعنوان : "جذور العرقية الصهيونية"	٢٧
المسألة اليهودية والحل الصهيوني	٤٢
مقتطفات من كتاب " اختراع الشعب اليهودي " تأليف : شلومو ساند	٤٥
الصهيونية والرأسمالية العالمية	٥١
دوافع إسرائيل إلى الاعتراف بها دولة يهودية – عزمي بشارة	٥٤
في ذكرى وعد بلفور: دولة للشعب اليهودي	٦٠
اليهود واليهودية والصهيونية	٦٥
من «دولة اليهود» إلى«يهودية الدولة»إشكالات الهوية المضطربة في إسرائيل	٨٠
العنصرية	٨٧
العنصرية والصهيونية	٩١
الصهيونية: كولونيالية أم دين؟	٩٣